المقتطف

الجزء الثالث من المجلد الخامس عشر بعد المئة

١ اغسطس سنة ١٩٤٩ — ٦ شوال سنة ١٣٦٨

يوستنيانوس

والامبراطورية البوزنطية

٤ — يوستنيانوس والبابوية

كان أول عمل قام به « يوستنيانوس » عقب توليه الملك التفاهم مع البابوية واضطهاداً مريراً شاقاً أنزل بالوَحدَيطَبَعيين وبلائه وبلاياه . لقد أدرك « يوستنيانوس » بثاقب فكرته وألمعيته السياسية ، أن تعضيد البابا ضروري في استعادة الغرب من يد الهمج . ولكنه بمجرد أن ثبت قواده أقدامهم في أرض إيطاليا ، وملكوا زمام « روما » وضح بجلاء أن « يوستنيانوس » قد رمى إلى أن يكون السيد المطاع ، حتى في الشئون الكنسية .

في سنة ٥٣٧ من الميلاد عُزِل البابا « سِلْوِريوس » (1) الذي كان للنفوذ القوطي أثرٌ في انتخابه ، وانتخب بدلاً منه البابا « وِيغيليوس » (2) مُرشح الامبراطورة « ثيودورا » . كذلك يعزى إليها أنها أقنعت الامبراطور بأن ينزل شيئاً ما عن قسوته إزاء الوَحديطَبعيين ، وقد أخذوا يزدادون قوةً ونفوذاً برغم اضطهادهم . واتباعاً لنصيحة « ثيودورا » عمل « يوستنيانوس » على أن يكسب بعض ثقتهم فأصدر مرسوماً امبراطوريًّا حَرَّم فيه بعض المؤلفات النسطورية (3) بالرغم من أن مجمع خلقيدونية (4) كان قد أجازها في سنة ٤٥١ ، ولما عارض البابا « ويغليوس » هذا المرسوم ، طردته الجيوش الامبراطورية من « روما » ؛ وساعد على ذلك أنه لم يكن محبوباً من أهل إيطاليا ، لسوء خلقه ،

---

(1) Silverius (2) Vigilius (3) Nestorian Works (4) Chalcedon

إذ قتل أحد المسجلين بلكمة من قبضة يده، وأمر بابن أخته فضرب حتى الموت.

نقل البابا في أول الأمر الى «صقلية»، ثم الى القسطنطينية، حيث صنع به ماهيأه الى أن يذعن لأمر «يوستنيانوس». غير أنه لم يلبث غير بعيد حتى عاد فتاب عن فعلته هذه ورجع عن خطيئته وقضى سبعة الأعوام التي بقيت له في البابوية، جاهداً في سبيل أن يتخلص من الموقف الذي ألقى بنفسه فيه، بالأيمان المغلظة طوراً، وبالاعترافات المكتوبة طوراً آخر.

ظلّ هذا البابا سجيناً في القسطنطينية زمناً مّا، وهدّد باستعمال القسوة معه عندما هرب الى الأديرة يحتمي بها، ثم نُفي أخيراً الى جزيرة صحراوية. ولقد أيد المجمع المسكوني الكنسي الخامس الذي عقد في القسطنطينية سنة ٥٥٣ في كنيسة «أيا صوفيا» الجديدة، مسلك يوستنيانوس. أما رجال الكنيسة الذين أيدوا «ويغيليوس» فعوقبوا بالوشم والسجن والنفي والإقالة. ولقد أذعن «ويغيليوس» في النهاية. غير انه بفعلته هذه قد أنزل من سلطان البابوية في الغرب وأضعف هيبتها، فهبّ أسقف «ميلان» (١) وأسقف «أكيليا» (٢) يرميانه بخيانة الأرثوذكسية، وبدأ عهداً طويلاً من الانقسام. وظل «يوستنيانوس» طوال البقية الباقية من حكمه حاكماً بأمره في انتخاب «البابوات» وفي شؤون الكنيسة بوجه عام.

على الجملة، كان «يوستنيانوس» حاكماً مطلقاً في شؤون الدين وشؤون السياسة معاً، وتصرّف على أنه الرئيس الأعلى للكنيسة النصرانية. غير انه الى جانب هذا كان جاداً في تنمية المرافق النصرانية، وفي أن يعيد الى الامبراطورية الرومانية قوتها وسلطانها. فكان كريماً سخيّاً اذا وهب الكنائس والأديرة، حمساً في تشجيع البعثات التبشيرية الى الهمج، قاسياً كل القسوة في معاقبة الوثنيين والهراطقة (٣).

ولكن مما يؤاخذ به أنه أغلق مدارس الفلسفة في أثينا، وصادر هباتها، حتى الهبات التي كانت تعطى لأقاديمية «أفلاطون» (٤)، ومنع عنها الموارد التي كانت ايراداتها تزود الأساتذة بمرتباتهم، ففرّوا إلى البلاط الفارسي.

---

(١) Milan (٢) Aquileja (٣) Heretics (٤) Plato

ولقد ظلّ « يوستنيانوس » ، حتى بعد ان بلغ الهرم ، وبعد أن فقد كل شهوة الحرب والنظر في تفاصيل الدفاع عن الامبراطورية ، تلك التي استغرقت كل همته واسترعت كل انتباهه من قبل ، محبًّا للاشتراك في الجدل اللاهوتي ، نازعاً الى العمل على أن يجعل شعبه موحَّد الإيمان ، موحّد العقيدة .

لقد أبان عراك « يوستنيانوس » مع البابا عن حقيقة تلك الصعوبة التي تنطوي على ضمّ شطري العالم النصراني ، في الشرق والغرب ، تحت سلطان كنيسة واحدة . ولقد قدر بعض الباحثين أن « القسطنطينية » ظلت في شقاق ديني مع روما نصف الزمن الذي انقضى من سنة ٣٣٧ الى سنة ٨٧٨ من الميلاد . فان المجلس الثامن والأخير الذي عقد في الشرق وقبلت « روما » أن يكون مجلساً مسكونيًّا قد شهدته القسطنطينية في سنة ٨٦٩ ، أما الانقسام النهائي فلم يحدث الا سنة ١٠٥٤ ولكن الواقع أنه لم تقم وحدة صحيحة ، قبل أن يحل ذلك الانقسام بعهد طويل . ومنذ ذلك الوقت ، وبالرغم من محاولات رمت الى التوحيد ، ظلّ كثالكة الرومان منفصلين عن كثالكة اليونان ، وعن نصارى الروس .

٥ — استعادة شمال افريقية

حكم « الوندل » ملك ضعيف من سنة ٥٢٣ الى سنة ٥٣٠ ، هو الملك « هلدريق » (١) وكان أميل الى الكثالكة الأورثوذكس منه الى الآريين ، ومضى على صداقته بيوستنيانوس معترفاً بسيادته الاسمية . ولما تذمر الوندل عزلوه وأمَّروا الملك « غليمر » مكانه ، سنحت ليوستنيانوس فرصة للتدخل في الأمر . ولقد استطاع القائد « بليزاريوس » على رأس جيش عدّته عشرون الف جندي ، أكثرهم من « الفرسان المصفحين » (٢) أن يهزم الوندل وشيكاً في موقعتين ، وسلّم « غليمر » سنة ٥٣٤ ، كذلك سلمت جزائر سردينيا وكورسيكا والبليار لقواد « يوستنيانوس » واستردّت الأسلاب التي أخذت من « روما » في سنة ٤٥٥

ذلك في حين أن البربر الذين كانوا ممعنين في استرداد أراضيهم من الوندل ، قد مضوا يقاومون بعناد شديد مدى أربعة عشر عاماً بعد ذلك التاريخ . وفي الحق ان « يوستنيانوس » لم يستطع أن يغزو كثيراً من أرض « موريطانيا » (٣) وهي أمعن بقاع شمال افريقية امتداداً نحو الغرب ، وتعرف الآن ببلاد مراكش ، غير انه كان مستولياً على « سبته » (٤) تلك القلعة

Ceuta (٤) Mauretania (٣) Cataphracti = heavy-mailed cavalry. (٢) Hilderic (١)

الحصينة التي تقوم حارسة على بوغاز جبل طارق . ولقد حصن تخوم البلاد التي وقعت تحت سلطانه وأصبحت في حوزته ، فاستنفذ ذلك كثيراً من الجهد والنصب ، لأن « الوندل » هدموا جميع التحصينات الأولى ما عدا قلاع « قرطاجة » . (١) على إننا نرى الآن من خرائب تلك القلاع ما يوحي إلينا بضخامة ذلك العمل الفذ .

قاست الولايات الافريقية كثيراً من العنت والارهاق في خلال الصراع مع البربر ذوي العناد والقوة ، كما أرهقها ثقل الضرائب التي كان يفرضها عمال « يوستنيانوس » . وانا لنستنتج شيئاً عن عدد الأنفس في شمالي افريقية من عبارة وردت في كتاب « التاريخ السري » لفروقوفيوس ، اذ ذكر ، بما لا يخلو من مبالغة ومغالاة ، ان خمسة ملايين من الأنفس طاح بها القتل في أثناء تلك المغزاة ، مضافاً الى ذلك عدداً ضخماً من هيئة الموظفين الذين عملوا في حكم ذلك الاقليم . وكان على رأسهم « الحاكم البريتوري » (٢) وقد عرف فيما بعد باسم « الأكْزَرْخ » أي الحاكم الأعلى ، (٣) وكان يتقاضى مرتباً ضخماً ، يزيد على مرتب بقية الموظفين مجتمعين . ومن تحته ادارة كاملة بها أربعمئة موظف ، ثم سبعة حكام تحت كل واحد منهم خمسين مساعداً ، ثم ستة دوقين (٤) مع كل منهم أربعين كاتباً ، عهد إليهم بأعمال التخوم وصيانتها ، فالمجموع ألف موظف . ولقد عمل « يوستنيانوس » على أن تسترد أفريقية البوزنطية رخاءها ، وزوّد قرطاجة بعدد من الأبنية الجديدة .

٦ — استعادة إيطاليا

عندما شنّ « يوستنيانوس » حربه مع الوندل (٥) كانت مملكة القوط الشرقيين (٦) في إيطاليا يحكمها ملك حدَث ، وكانت أمه حسنة النية من ناحية « يوستنيانوس » ولها به ثقة ، فسمحت للقائد « بليزاريوس » أن يتخذ من صقلية قاعدة يدير منها العمليات الحربية على أفريقية . ولقد أصبح ابنها موضعاً لاحتقار رؤساء القوط لأنه كان يبكي اذا

---

(١) Corthage : يخطىء بعض المترجمين فيخلطون بين قرطاجة وقرطاجنة : فالاولى هي المدينة القديمة في شمالي أفريقيا ، أما الثانية فمدينة أقامها القرطاجيون على ساحل اسبانيا الشرقي وسموها قرطاجنة أي قرطاجة الصغيرة : والاولى ترسم Corthage والثانية Corthagena (٢) Praetorian prefect (٣) Exarch

(٤) dukes دوقين : جمع دوق (٥) Vandals, (٦) Ostrogoths

ضربه أستاذه بالسوط . ولكن هذه الطريقة الخشنة التي اتبعت في تنشئته ، قد أحدثت فيه صفات مضادة للصفات التي ظنّ أن هذه التربية قد تغرسها فيه ، فنشأ صلباً قاسياً ، ولقد أودت بحياته شروره ومباذله وشهوانياته ، بعد أشهر قليلة من انتصار « بليزاريوس » على الوندل وتسليمهم له .

نجحت الملكة الأم في التزوج من ابن خالها وكان أول من له الحق في العرش بعد موت ابنها ، ولكنه أغرى بها ، فقتلت طعناً بالخناجر . فانتهز « يوستنيانوس » هذه الفرصة لإعلان الحرب ، إذ كان يعد هذه الملكة من أحلافه .

كان « يوستنيانوس » بسياسته اللبقة الكيِّسة ، قد استطاع أن يغري الفرنجة (١) بغزو « بروفانس » وشمالي إيطاليا ، فأخذ الفرنجة عند ما بدأ « بليزاريوس » مغزاته الايطالية يساعدونه ويمدونه بالعون . وشدّ « يوستنيانوس » أزر « بليزاريوس » بقائد بوزنطي آخر غزا « دلماشيا » ، ولكنّ « يوستنيانوس » أرسل في إثره القائد « نارسس » بجيش آخر ليعرقل تقدمه ويتجسس عليه ، فانتصرت جيوش بوزنطية عدّة انتصارات متوالية بين سنتي ٥٣٥ و ٥٤٠ انتهت بتسليم رافنا (٢) .

غير أن القوط تحت إمرة ملك جديد إسمه « طوطيلا » (٣) جددوا الحرب ، ولم تحل سنة ٥٥١ حتى كانوا قد استعادوا معظم إيطاليا واحتلوا صقلية (٤) وسردينيا (٥) وكورسيكا (٦) وفي النهاية استطاع الشيخ « نارسس » ذلك القائد المحنك أن يهزم الملك طوطيلا ويقتله في سنة ٥٥٢ ، وفي سنة ٥٥٥ اضمحلت قوى القوط ، وطرد الفرنجة والألمان (٧) من إيطاليا وكانوا انتهزوا فرصة تلك الأحداث وما جرت من فوضى ، فأخذوا يعيثون في أرض الرومان فساداً . ولكن الى جانب هذا فقدت الامبراطورية « رايطيا » (٨) و « نوريقوم » (٩) و « بانونيا » (١٠) ، وفي سنة ٥٦٨ بدأ « اللومبارديون » (١١) غزواتهم الناجحة ووطدوا أقدامهم توطيداً جزئياً في ايطاليا .

لم يدر في خلد « يوستنيانوس » أن يعيد الى الوجود الأمبراطورية الغربية ، ويضع

---

(١) Franks (٢) Ravenna. (٣) Totila (٤) Sicily

(٥) Sardinia (٦) Corsica (٧) Alemanni (٨) Rhaetia (٩) Noricum (١٠) Pannonia (١١) Lombards

لها امبراطوراً . فان ايطاليا ، كافريقية ، حكمها نائب امبراطوري تحت سلطان القسطنطينية وانتهى بذلك عمر السناتو الروماني (١) .

غير ان « نائبيّة » « رافنا » بالرغم من انها انكمشت وقمأت ، فانها ظلت موجودة زمناً طويلاً بعد دخول اللومبارديين إيطاليا . أما « رافنا » نفسها فلم تسقط الاّ في سنة ٧٥١ ، وظلت الامبراطورية البوزنطية مستولية على صقلية وأجزاء من جنوبي إيطاليا ، وغير ذلك من المواقع المتناثرة على الشاطىء مثل البندقية (٣) حتى القرنين العاشر والحادي عشر

كذلك ملك « يوستنيانوس » جزءاً ساحليّاً من جنوب شرقي اسبانيا ، اذ استنجد به أحد الأدعياء ليساعده على الملك الآريّ الذي كان يضطهد رعاياه الكاثوليك . ومع الزمن رجع هذا الاقليم شيئاً فشيئاً الى القوط الغربيين (٤) . غير أن « يوستنيانوس » قد نجح في أن يضم شطئان البحر المتوسط الى الامبراطورية ويظللها بسلطانه ، واتخذ بانتصارات قواده ألقاباً نخمة رنانة مثل أفريقانوس ، (٥) ونداليفوس ، (٦) قوثيقوس ، (٧) المانيقوس (٨) فرنجيثوس ، (٩) جرمانيقوس (١٠) .

٧ — يوستنيانوس والهمج

كانت شبه جزيرة البلقان شرقي دلماشيا وبنّونيا ، جزءاً من الأرض التابعة للامبراطور « يوستنيانوس » وتحت سيادته . غير أن سيادته عليها كانت إسمية ، لأن الهمج كانوا يجتاحونها المرّة بعد المرة ، بمحض ارادتهم ومتى شاؤا . فأخذ يحصن ذلك الاقليم الممتد من الدانوب الى بحر « مرمرة » (١١) بخطوط من القلاع القوية ، وأحيا في ذلك الاقليم ، وفي جميع الأقاليم الامبراطورية ، النظام الروماني القديم ، في أن يعهد بحماية الحدود الى جنود من أهل ذلك الإقليم ، يقيمون في أرض تقطع إليهم محاذية لتخوم المملكة . كذلك دربت جيوش « بليزاريوس » و « نارسس » وجهزت بجند من الهمج الأجانب عن الامبراطورية . وكان أكثر اعتماد « يوستنيانوس » على سياسة رشيدة رصينة اتبعها

Vandalicus (٦) Africanus (٥) Visigoths (٤) Venice (٣) Exarchate (٢) Roman Senate(١)

Marmora (١١) Germanicus (١٠) Francicus (٩) Almannicus (٨) Gothicus (٧)

إزاء الهمج المحيطين ببوزنطية . ولقد رأينا طرفاً من هذه السياسة الماهرة في أن يتخذ من البيوت الحاكمة في أفريقية وإيطاليا وأسبانيا أصدقاء ، ثم ما يلبث أن ينتحل الأسباب لغزو بلادهم . كذلك استطاع أن يبهر سفراء القبائل الهمجية التي كانت تعيش إزاء تخومه بفخامة بلاطه وأبهته إذا ما هبطوا القسطنطينية ، وأنعم على ملوكهم بالهدايا والحسنات والألقاب . غير انه الى جانب هذا كان يغري بعضهم ببعض ، فيظلون في شغل عنه بأنفسهم ، بعيدين عن التفكير في غزو أقاليمه . ولقد امتدّت محالفاته الى أثيوبيا والحبشة وأعالي النيل . على أن هذه السياسة كانت كثيرة النفقات ، لأن الهمج لا يأتمرون بأمره من غير منح ينالونها ، وهبات يتلقونها منه .

* * *

كانت العقبة الكبرى التي وقفت في سبيل « يوستنيانوس » ومشروعاته الكبرى في تنمية الامبراطورية وتقويتها ، عداء المملكة الفارسية (١) التي كانت تهدد تخومه الشرقية ، فان الحروب التي وقعت بين بوزنطية وفارس ، ولم يكن هو من جناتها ، والتي ظلّت قائمة بين ٥٢٤ و ٥٣٢ ؛ ثم من ٥٤٠ الى ٥٤٥ ؛ ثم من ٥٤٩ الى ٥٦٢ قد انتهت باذعان الامبراطورية البوزنطية وقبولها دفع جزية سنوية لفارس . ولقد اضطرّ في أثناء هذه الحروب أن يسحب كثيراً من الجنود من التخوم الشمالية ليباشر حروبه مع فارس ويواجه مطلوبات مغازيه الطويلة في أفريقية وإيطاليا ، حتى أن قبائل الهون (٢) والسلاف (٣) والبلغار (٤) قد استطاعوا أن يهاجموا تخومه عبر الدانوب بمعدّل مرة في كل أربع سنوات طوال حكمه . وكانوا في النهاية يردون على أعقابهم ، غير أنهم استطاعوا في احدى غاراتهم أن يصلوا برزخ « قورنثوس » (٥) أو مشارف القسطنطينية . ولقد توّج « بليزاريوس » أعماله في شيخوخته ، برد غارة شنعاء شنها الهون في سنة ٥٥٨ ؛

البلغار الأصلاء قومٌ بدو رعاة كالهون (٦) . وقد تبعوا الهون الى منحدرات

---

(١) Kingdom of Persia
(٢) Huns
(٣) Slavs
(٤) Bulgars
(٥) Isthmus of Corinth
(٦) Huns

«فونطوس» (١) في زمان متأخر عن مقدم الهون بعض الشيء. ولقد كان أول ظهورهم في جنوب الدانوب حوالى نهاية القرن الخامس الميلادي. وكما فعل الهون قبل مئة سنة إذ غزوا القبائل الجرمانية وكسحوا قبائل أخر الى لجاج الامبراطورية الرومانية، كذلك فعل البلغار لحملوا السلاف على أن يرافقوهم في غارات كثيرة عبر الدانوب. وبالرغم من أن البلغار كانوا السادة والأمراء، فانهم انتحلوا لغة السلاف وعاداتهم، واندمجوا فيهم فأصبحوا الأمة البلغارية التي نعرفها اليوم.

***

أما تاريخ قبائل السلاف الأول فغير محقق، يكتنفه الشك وتحف به الريب. وهم يعتبرون سلالة ألبية (٢) وأقرب الأجيال إليهم دماً هم الكلت (٣) على ما يظهر، ويتكلمون لغات من المجموعة «الاندويوربية» (٤)؛ وهم يتضمنون اللسط (٥) واللثوان (٦) مآهلهم بمقربة من بحر البلطيق، ثم روساً وسلافاً مآهلهم في جنوبي نهر الدانوب.

وقبل التاريخ الميلادي بعدة قرون، دفعهم الجرمان الى ما بعد نهر «الفستيولا» (٧) ولكن في القرون الأولى من العصر الميلادي تكاثر السلاف بسرعة على ما يظهر وانتشروا انتشاراً مروعاً في شرقي أوربا. وكانوا فلاحين من الزرّاع؛ غير أنهم أقل من الجرمان كما يظهر من حيث غذائهم النباتي وحاجتهم الى الحيوانات الداجنة التي تساعدهم على أعمالهم وتخفف عنهم شيئاً من جهدهم البدني. ولم تتنشأ فيهم النظامات الاجتماعية والسياسية إلاّ قليلاً، والى جانب أنهم رحماء مقتصدين ممارسين للمشقات كانوا قليلي الابتكار بعيدين عن الاعتداء، وأكثر ميلاً الى الموسيقى منهم الى صناعة الحرب. ولقد ارتدّ كثير منهم فلاحين مسودين يعملون تحت سلطان البدو الذين هبطوا من الشرق، ولكن بعضهم قد تعلم من غزاته الجلاد والغارات فأصبحوا بدورهم غزاة عند ما ترك القوط

---

(١) Pontus Steppe (٢) Alpine Race (٣) Celts

(٤) Inds-European (٥) Letts (٦) Listhuanians (٧) Vistula

الشرقيون شبه جزيرة البلقان حرّة ليحل محلهم فيها غزاة ومغيرون جدد . ولقد تكلم «فروقوفيوس» (١) خاصة عن السلاف في بسارابيا (٢) ومولدافيا (٣) وولاشيا (٤)

تلقاء نهاية حكم «يوستنيانوس» وقع في عالم الهمج انقلابان كبيران . فان الهون البيض أو «الافثاليون» (٥) وهم قبيلة همجية من حوض نهر جيحون (٦) وراء مملكة فارس كانوا شوكة في جنب تلك المملكة طوال الزمن الذي هاجمت فيه الأمبراطورية البوزنطية. هزمهم الأتراك وبددوا سلطانهم ، أولئك هم الأتراك الذين أراد القدر أن يلعبوا على مسرح التاريخ الأوربي دوراً ذا شأن عظيم . وفي نفس الوقت أخذ مد عظيم من موجات البدو الأسيويين ، وهم قبائل «الأفيار» ينحدر نحو الغرب . ولقد منحهم «يوستنيانوس» في أخريات أيامه جزية سنوية مكافأة لهم على هزيمة البلغار والسلاف الذين كانوا يهددون تخومه وينتهكون حرمتها . وبعد موت «يوستنيانوس» بقليل حاربوا تحت امرة خاقانهم «بايان» مع الفرنجة في «ثورنجيا» (٧) ثم وحدوا قوتهم مع اللومبارديين (٨) ليهزموا قبائل أل «غفيدا» (٩) في أعالي الدانوب . ومن ثمت انقض اللومبارديون من بنونيا على ايطاليا ، بينا استباح «الأفار» أرض «الغفيدا» وتوطنوا السهل الذي هو الآن «هنغاريا» . وسرعان ما أخذوا يفرضون سلطانهم الاستبدادي المطلق على أقاليم أوسع وأشمل ، لأن الجرمان بضربهم غرباً وجنوباً ، قد أباحوا أواسط أوربا لمن يتقدم لاستعمارها . وفي خلال ما تبقى من القرن السادس ، اعتاد «الأفار» أن يُشتوا بجوار مدينة «نورنبرج» (١٠) الحديثة في شمالي بافاريا . أما نفوذهم في أقصى عنفوانه ، فقد امتدّ على الأرجح من بحر البلطيق الى إسبارطة (١١) ، ومن التيرول (١٢) الى روسيا ، وأخذت قوتهم في التضاؤل عند القرن الثامن .

اسماعيل مظهر

---

(١) Procopius (٢) Bessarabia (٣) Moldavia (٤) Wallachia

(٥) Ephthalite (٦) Avars Oxus See Smith's p. 639 (٧) Thuringia (٨) Lombards

(٩) Gepidæ (١٠) Nürnberg (١١) Sparta (١٢) Tyrol

« مهداة الى روح الخليل »

يا عذارى الليل

يا عذارى الليل غني الروحَ غني   هدأ الروحُ على العودِ المرنِ
أين ذاك الأمس من روحي ومني   هاتفُ الليل مضى عنكِ وعني !

*

أنا وحدي... بل وأطياف حبيبي   تنثر الشوقَ على أمسٍ قريبِ
شربَتْ روحي دموعي فارفقي بي   يا عذارى الليل بالله وحني

*

هاتف الليل . . ألا عاد النشيد   يملؤ الليل كؤوساً من جديد ؟
شحب النور على الأفق البعيد   وسها الجدول في روضي الأغن

*

وعذارى الليل..ما أوفى العذارى!   ذهبت تلتمس الوجد المثارا
ثم عادت .. آهِ أطيافَ حيارى   تمزج الدمعَ بريحاني ودني !

القاهرة   يوسف جبرا

مستقبل

الشعر العربي

الشعر مشاركة جدية في الحياة ، تتخذ مادتها من الواقع الإنساني العام ، وصياغتها من طبيعة حركة الحياة الخاصة . وحياة الشعر ليست في مفردات مستحدثة ، ولا أخيلة محلقة ، ولا معانٍ مبتكرة ، وانما في مقدار ما يأخذ من الحياة وما يعطي لها ، وفي مقدار ما يتأثر بها ويؤثر فيها . ذلك لأنّ الشعر « فعل حي » وحركة جدية تؤرخ لنا واقعنا النفسي تأريخاً لا يقوم على « المصدر والوثيقة » وإنما على المعايشة والوجود . وهو بهذا التأريخ الحي يؤازر بين حركاتنا ، ويطور تجاربنا ويجعل من حياتنا طريقاً إلى ... إلى « أي شيء » واكتشاف قارة كاكتشاف نبتة ، كاكتشاف جمجمة قرد ، كاكتشاف علاقة رياضية كاكتشاف حشرة ، كاكتشاف نظرية اقتصادية ، كاكتشاف صياغة شعرية ، كلها ثروات تضاف الى الواقع النفسي فتخصبه وتضخم من محتوياته وتعمق من أبعاده . ذلك لأننا نعرف أن تطوّر الإنسان ليس إلاّ تطوّر نظرته الى الواقع الذي هو بدوره كائنٌ حي متطور أبداً . والنظرة الى الواقع تجربة إنسانية ، محض إنسانية ، والشعر إحدى عناصرها ومقوّماتها . ومن هنا كان الشعر مسئولية إنسانية . ومسئولية الشاعر هي في إحالته للإشكال الجزئي الصغير إلى إشكال إنساني كبير ، بحيث يجعل من أحداثه الشخصية الخاصة حقيقة عامة متضخمة ، تستشرف الإنسانية خلالها حياتها ، وتغذي واقعها النفسي .

والمشكلة هنا ليست مشكلة موضوع بقدر ما هي مشكلة صياغة فقد يسمو الموضوع وقد يسفّ ، ولكن يبقى العمل الشعري عملاً شعريّاً وتبقى الظاهرة التعبيرية ظاهرة فنية . وقد اختلف « أيديولوجيّاً » مع شاعر ، وأرفض مذهبه في الحياة ، وأتهم فهمه لها بأنه فهم رجعي ، فيه ردّة ونكوص . ومجانبة لتطوّر الواقع الإنساني كما أفهمه ، ولكن تبقى له عندي صياغته الفنية . جليلة رائعة . وقد اتفق « أيديولوجيّاً » مع آخر يتماشى

مذهبه في الحياة مع مذهبي ، ولكن قد أتهم صياغته الفنية بالتفكك والتجانف وعدم الاتساق ، بل قد أرفض كشاعر فنان ، وإن رضيت بلونه المذهبيّ الانساني .

وقد يبدو لأول وهلةٍ أن ما انتهيت إليه ، يتناقض مع ما سبق أن ذكرته من قبل . فهنا أغلّب الصياغة على الموضوع ، وهناك كنت أتحدث عن الشعر كحركة حيّة ومشاركة جدية في الحياة . أليس هذا تناقضاً ؟ . . الحق . . لا . ذلك لأن الصياغة الفنية بحسب ما أفهمها هي نفسها إضافة جديدة إلى الحياة . فهي المخلوق الحقيقي الذي يساهم بإيجاده الفنان إلى جانب المخلوقات الكونية المتعددة . ويتحتم علينا إذن أن نعرف ما هي الصياغة وسأقتصر بالطبع على الصياغة في العمل الشعري .

يتكوّن العمل الشعري أولاً من وحدة أولى صغيرة هي الكلمة ، ومن علاقات بين الكلمات هي الجملة الشعرية أو البيت ، ثم من علاقات بين الجمل الشعرية أو الأبيات هي العمل الشعري بأكمله . والكلمة الفردة لها دلالتان : دلالة لغوية ودلالة موسيقية . والجملة الشعرية أو البيت له دلالات ثلاث : لغوية وموسيقية وبلاغية . والعمل الشعري بأكمله له دلالات أربع : دلالة لغوية ودلالة موسيقية ودلالة بلاغية ودلالة فنية . وهذه الدلالة الأخيرة هي في الواقع الثمرة الحقيقية للتعبير . وتتحقق تلك الدلالة الفنية بمقدار تحقق الارتباط الضروريّ بين العناصر المكوّنة جميعاً لهذا العمل الشعري من كلمات وجمل ودلالات مختلفة . بمقدار تحقق الضرورة بين هذه العناصر تتحقق الظاهرة الفنية في العمل الشعري ، أو بتعبير آخر تكمل صياغته . ومعنى هذا ، أن الصياغة تركيب ذو عناصر بينها علاقات ضرورية والضرورة هنا ضرورة نسبية ، وليست مطلقة ، وذلك راجع إلى انسانية التعبير . إلاّ أن تلك الضرورة النسبية نفسها هي التي تجعل من كل عمل فني خلقاً جديداً وإضافة حقيقية الى الحياة . فليس ثمة ضرورة واحدة تصدق على كل عمل فني ، بل كل عمل فني يحمل في داخله مبررات الضرورة في تركيبه الخاص . ومن هنا تتحقق المعجزة الكبرى ، معجزة انتقال الحدث الشخصي إلى حدث إنساني والاشكال الجزئي إلى إشكال كلي عام خلال الصياغة الفنية .

وهنا أجازف بالقول بأن كلية الموضوع الفني وعمومية مادته وشمول مضمونه ، إنما تتحقق بمقدار تحقق الضرورة بين عناصره المكوّنة له ، أي بمقدار الأحكام في صياغته . وهذه ليست

نظرية أقول بها، بل معجزة تحققها كل صياغة فنية محكمة . وبهذا المعنى وحده يقال على كل عمل فني كبير إنه يستند إلى وحدة تجريبية : والحق إن الوحدة التجريبية ليست إلاّ ثمرة إعجازية لأحكام الصياغة .

وأنا أعرف السؤال الذي يواجهني الآن به كل قارىء بعد هذه الأحكام السريعة . ولكني أعترف منذ البداية أني لن أجيب عليه إجابة وافية . والسؤال هو : ولكن ما هي تلك الضرورة بين العناصر المكوّنة للعمل الشعري ، تلك الضرورة النسبية التي تختلف باختلاف كل عمل ، والتي بتحققها تتم الصياغة وتستحيل الحركة الشعرية فعلاً خلاقاً ، ويستحيل بها الحدث الجزئي الخاص الى تجربة عامة كلية ؟

نحن نعرف أنها ليست ضرورة منطقية بحتة ، وليست ضرورة دلالية لغوية بحتة ، وليست ضرورة بلاغية بحتة ، وليست ضرورة موسيقية بحتة وليست ضرورة شعورية وجدانية بحتة .

فقد تحقق الضرورة الصياغة في عمل فني ، مجانب للمنطق العقلي ، متناقض مع الدلالات اللغوية المتفق عليها ، خال من الطقوس البلاغية ، تضطرب موسيقاه ، وتتصارع ايقاعاته الشعورية الوجدانية ، ولكنه يبقى مع ذلك عملاً فنياً . والخطأ الكبير الذي يرتكبه الكثيرون في مواجهتهم لعمل فني حقيقي أنهم يتطلعون فيه إلى إحدى تلك الضرورات فلا يجدونها فيحكمون عليه بالفسولة والضعف ، ذلك لأنهم ما تفتحت أمام بصائرهم تلك الضرورة الاعجازية الخارقة وأقصد بها الضرورة الفنية ، التي هي تركيب عضوي حي من كل تلك الضرورات الجزئية بنسب متفاوته . ولأنهم ما استبصروا في حياتهم الثقافية ذلك الكائن الانساني العجيب وأقصد به الحقيقة الفنية . أجل . هناك ثمة حقيقة فنية هي في مظهرها علاقات ونسب ضرورية وفي جوهرها إضافة حقيقية جدية الى الحياة . وبهذا يزول التناقض الذي يتضح لأول وهلة وتتفصح لنا وثاقة الصلة بين صياغة التعبير الفني وإنسانيته .

ونحن في مواجهتنا لتجارب الشعر العربي لم نستطع حتى اليوم إلاّ الى مدى محدود ، أن نخرج الى دائرة أوسع من دائرة تلك الضرورات الجزئية التي تكلمت عنها . وإنما

اقتصرنا عليها فحسب في تاريخنا النقدي الطويل متخذين منها سنداً للحكم على كل عمل شعري. والشعر العربي يزخر بالتعبيرات التقريرية البحتة ، والنقد العربي كذلك يزخر بآيات التمجيد لتلك التعبيرات التي لا تستند الاّ الى ضرورة منطقية . والتعبير الفصاحي والبلاغي يكون الجانب الأكبر من تعبيراتنا الشعرية ، والنقد العربي كذلك لا يزال حتى اليوم يزخر بآيات التمجيد كذلك لتلك التعبيرات «البهلوانية» اللبقة . وفي العصر الحديث تقوم نظريات جديدة في الشعر العربي متخذة الرمز أو الإيحاء الصوتي أو الوحدة الشعورية سنداً للرضى عن تعبير شعري أو رفض تعبير شعري آخر ، متذرعة في ذلك بنتائج مستمدّة من الأبحاث السيكلوجية . على أنه حتى اليوم لم يتحقق موقف جدّي يواجه التعبير الشعري كظاهرة فنية ، ويحكم له أو عليه بمقتضى هذه الوجهة من النظر .

وأنا أعترف أن اللفظة العربية في التعبير الشعري قد لحقها تطوير واستحداث وأن العلاقة بين الألفاظ العربية [الجملة الشعرية أو البيت] قد لحقها كذلك تطوير واستحداث ؛ أما العمل الفني فما أقدم على تحقيقه حتى اليوم غير أفراد يعدون على الأصابع ، متجاوزين عما في أعمالهم من بدائية واستخفاف .

الحقيقة الفنية ضائعة في الشرق العربي .

فالشعر العربي اليوم في غالبيته ما يزال تجربة لغوية بلاغية ، وما زال كبار شعرائنا هم هؤلاء المجودون قولاً والمفصحون بياناً والمحلّقون خيالاً . ولست أدري الدور الذي يقوم به شعراؤنا المحدثون إلاّ أنه مجرّد لباقة لغوية من نوع مبتكر ، استند على الاستفادة الكاملة بكل إمكانيات اللفظة وبعلاقاتها المتنوّعة بغيرها من الألفاظ ، هذا فضلاً عن القدرة الخاصة على التحليق والتغور في مسابح الخيال وأبعاده . إنها لعبة ألفاظ تلعب فيها القدرة اللغوية واللباقة الذهنية والمصادفة البحتة دوراً كبيراً ، لعبة ألفاظ ... تتقارب فتشع معانٍ ، وتتاح صور في حدود مقفلة هي حدود بيت شعري ، ثمّ تتقارب ألفاظ أخرى فتشع معانٍ وتتاح صور في حدود بيت شعري آخر ، وهكذا حتى تنتظم سبحة رائعة من الحياة الشعرية المتراصة ، كلٌّ منها بلون برّاق من التصورات اللغوية والتحليقات الخيالية . والحق أن الشعر العربي الحديث قد استطاع — كما قلت من قبل — أن يحرّك

من جمود البيت الشعري التقليدي ، ولكن في حدود اللفظة والعلاقات بين الألفاظ ، إلاَّ أن « التناول العام » ما زال كما هو . فالغنائية البحتة ما تزال أخص خصائصه حتى في التعبيرات المسرحية . والبيت ما زال كما هو وحدة العمل الشعري ، وعنصره الأساسي ، وما يزال المعنى البيتي هو السند القوي للحكم على قيمة العمل ، وما تزال سعة الخيال هي الهدف الأسمى الذي يحاول كل شاعر أن يبلغ مداه ليكون أميراً جديداً للشعر . ومشكلة الشعر العربي الحقيقية هي مشكلة هذا الإصرار العجيب على المعنى أو الصورة داخل بيت شعري مقفل ، هي مشكلة التعبير البلاغي القاصر دون بلوغ مرتبة الظاهرة الفنية .

ولن يكون للشعر العربي مستقبل ، كحركة جدية نواجه بها الحياة ، قبل أن يتخلى عن جمالياته الزخرفية ، عن تلك البلاغية الكاذبة وذلك الخيال المفضوح الذي لا يربطه بواقع الصياغة مسئولية أو التزام .

وفي رأيي أن الخلاص من هذا المأزق التعبيري ، لا يكون إلاَّ بالتخلي عن البيتية المقفلة . إما عن طريق التخلص نهائيًّا من القافية مع فتح البيت الشعري وجعله مفضياً إلى الأبيات الأخرى إفضاء تركيبيًّا وتصويريًّا . وإما عن طريق الإبقاء على القافية لا كنهاية للتركيب اللغوي للبيت وإنما كجرس موسيقي فحسب . ولقد كانت محاولات تحطيم القافية حتى اليوم محاولات مضحكة للغاية ، لأنها حطمت القافية وأبقت على وحدة البيت اللغوية . وبهذا استحال العمل الشعري إلى أبيات متعددة متفرقة لكل منها قافية خاصة . ولقد كانت القافية تقوم بوظيفة مزدوجة كنهاية للبيت وكوحدة موسيقية للقصيدة وبزوال القافية بقي البيت في وحدته المنعزلة التقليدية ، وفقدت القصيدة جانباً من جوانب وحدتها الموسيقية . وبهذا أضيف نقص جديد إلى التعبير الشعري . على أن هذا النقص يمكن تلافيه — كما قلت — إما بتحطيم القافية مع فتح البيت العربي وجعله مفضياً إلى غيره من الأبيات ، وإما بالابقاء على وظيفة واحدة فقط من وظيفتي القافية هي الوحدة الموسيقية ، وبالغاء وظيفتها الأخرى كنهاية للتركيب اللغوي للبيت ... وبهذا يكون البيت الشعري العربي مفضياً باستمرار إلى ما بعده من الأبيات .

على أن هذه ليست عملية هينة ميسورة بل تستلزم كثيراً من المعاناة والتصبر والجهد . إذ أنها عملية تخال قاسية عن تجارب أجيال عديدة من التعبير الشعري . والحق أنها في ذاتها عملية شكلية بحتة ، ولكني أرى أن مجرد تحرير الشاعر من طغيان البيت — هذا التحرر الشكلي فيما يبدو — سيؤدي الى تحرره من ربقة الفكرة اللغوية ، ومن وضوح الوزن التقليدي ورتابته بل ستتكشف له موسيقى أخرى داخلية هي موسيقى الصياغة الفنية

الحقيقية ، وسيجعل من تعبيره حركة تطورية في داخل الأطار الواسع الذي يشمل العمل الشعري كله ، ويتيح للمتذوق الجاهد فرصة الوقوف أمام التجربة الصياغية البحتة وجهاً لوجه .

وبعد هذا اليوم لن نحكم على شاعر بالجودة لأن أبياته مستقيمة وقوافيه سليمة ، ومعانيه مطابقة لألفاظه وألفاظه مطابقة لمعانيه .

وبعد هذا اليوم لن تكون القدرة البلاغية وحدها ولا الموهبة الخيالية وحدها ولا الحس الغنائي البحت أساساً للحكم على جودة شاعر . بل سنحكم على شاعر بالجودة إذا استطاع أن يجعل من تركيباته اللغوية الموزونة واقعاً انسانيًّا جديداً نغذي به واقعنا النفسي المحدود ، وتجربة حياتنا القاصرة . وليس ذلك الواقع الانساني الجديد إلاّ تحقق شروط الظاهرة الفنية في عمله الشعري . ولكن من قال إن مجرد ذلك التغيير الشكلي للشعر كفيل بأن يهبنا معجزة فنية . بل ومن قال إن القصيدة العربية في تركيبها الشكلي التقليدي تعجز عن أن تمدنا بمعجزة فنية — إن لم تكن قد أمدتنا بالفعل في حدود معينة — غير أن الذي أقوله هو حاجتنا الى تطوير وسائلنا التعبيرية ما أمكن على أن تكون أهدافنا دائماً إيجاد ظواهر فنية . والبيئة المقفلة في التركيب التقليدي فيها تعسف وعدم طواعية للحركة المتجهة التي تفرضها كل صياغة فنية .

وقد يقال لي : علام لا نتجه بكليتنا الى الشعر الحر مسايرين في ذلك أحدث الحركات الأوربية المعاصرة في الشعر ؟ على أني أرى أن كل تجديد في الفن ينبغي أن يكون عن طريق تطوير حقيقي لوسائلنا التعبيرية . ونحن لم نستنفد بعد امكانيات تلك الوسائل ، ولم نتجاوز حتى اليوم الوسائل التعبيرية القديمة اللهمَّ إلاَّ في حدود ضيقة جزئية . والشعر الحر تجربة بعيدة ما أعتقد أنها الدور الطبيعي الذي ينبغي أن يقوم به الشاعر العربي اليوم فليكن هدفاً أخيراً .. نصل اليه كنتيجة طبيعية لكفاحنا في تطوير وسائلنا التعبيرية ، ولا داعي حتى اليوم للوثبة الى ذلك المجهول البعيد على حين أننا بعد لم نستنفد كل التجارب الممكنة في وسائلنا التعبيرية الراهنة .

إن الصياغة الفنية ضرورة داخلية في التعبير ، فليكن كذلك انتقالنا الى الشعر الحر ضرورة داخلية في نفوسنا الشاعرة وليس تخلصاً أو هروباً من قسوة التعبير المقيد .

إن الحرية الحقيقية لا تصدر أبداً إلاَّ عن ضرورة حقيقية كذلك .

محمود أمين العالم

حذار من البنسلين (١)

البنسلين كغيره من العقاقير الطبية قد يفتك بالميكروبات
وقد يزيد من قدرتها على الفتك بالانسان

العقار الساحر

كلما اكتشف العلم عقاراً طبّل له العالم وزمّر ، ثم تهدأ العاصفة ، وينقشع الغيم ، فيختفي العقار وفعله السحري في زوايا النسيان . والبنسلين أحد العقاقير التي تلقاها العالم ، فوجد فيه معقل الرجاء ، ثم تكشف الواقع فاذا هو أقل من أن يحقق كل الأماني والأحلام بل إنه قد يكون عديم النفع في علاج أمراض سبق له أن أعطى فيها أحسن النتائج . وليس معنى هذا أن العقار أو الميكروب يقبض على عصا سحرية تعمل حيث تشاء ، ويبطل فعلها حيث تشاء ، بل معناه أن للعقار كما للميكروبات الفتاكة خواص تتغير بتغير الظروف ، ولكن سرها لا يتكشف إلا بعد مرور الزمن وزيادة المعلومات العامة .

وقد انكشف سر البنسلين والاستربتوميسين (٢) كما سبق أن انكشف سر عقاري السلفا (٣) والبيوسيانيز (٤) فعرف الطب في أي الظروف يقضيان على الميكروب ويزيلان المرض ، وفي أي الظروف يقف العقار مكتوف اليدين . وعرف الطب أيضاً أن الميكروب يكتسب مناعة يقاوم بها العقار إذا أسيء استخدام البنسلين أو اتباعه .

ولو تتبعنا عواصف الأمل التي اجتاحت العالم عند اكتشاف أي عقار مضاد للميكروبات الفتاكة بالجسم لرأيناها كما قال الدكتور بير الأستاذ بجامعة بنسلفانيا تهبط على العالم كحمى التيفوئيد فترفع درجة حرارته بسرعة عند ما يستخدمه الأطباء في علاج كل مرض ، ثم تبدأ في الهبوط عند ما تتكشف أخطاء استعماله ويلعنه العالم . وأخيراً تسير كدرجات الحمى في مستواها الطبيعي فيعرف العالم مفعول العقار على حقيقته .

﴿ الجد الأول ﴾ وتعال نتتبع تاريخ اكتشاف العقاقير وما أثارته في العالم من لغط .

---

(١) Penicillins (٢) Streptomycin s (٣) Salfas (٤) Pyocyanase

ففي عام ١٩٠١ اكتشف العالمان الأوروبيان رودلف أميريش وأوسكار لو عقاراً سمياه « بيوسانيز » فكان فعالاً في قتل ميكروبات الدفتريا في الأوعية الدموية. وكان أول فطر أمكن استخراجه من النباتات أي إنه الجد الأول للبنسلين.

وكان العقار مشوباً بعدة مواد غريبة لم يتيسر فصلها. ومع ذلك ارتفعت حمى العالم من أجله ثمانية أعوام. فأعلن أنه دواء ناجع لعلاج الكوليرا، والالتهاب السحائي، والحمرة، والتهاب الغشاء المخاطي، والسل. وتجاوزت الصحف فادّعت أن هذه المادة السحرية قادرة على علاج جميع الأمراض القتالة. ولم يخل مخزن أدوية من عشرات المركبات المحتوية على « البيوسيانيز ». وبها تعالج جميع الأسقام والعلل من الصلع الوراثي الى « كلّو » الأقدام

وظلّ الباحث النمسوي الدكتور يوجين بياسكي يدّعي أنه أعظم مطهر حتى عام ١٩٠٩ وكان يدّعي أن نثر رشاشه في الفم كفيل بمنع جميع أنواع العدوى. ورغم هذا لم تأت سنة ١٩١٠ حتى هجر الأطباء العقار لنتائجه الضعيفة في علاج الدفتريا، ولأنه كان عديم الجدوى حيال الأمراض الأخرى. وانفجرت فقاعة « البيوسيانيز » فلم يعد يذكر الآن على أي لسان.

﴿ معركة البكتريا « والسلفا » ﴾ وليس معنى هذا أن « السلفا » و « البنسلين » و « الستربتوميسين » ستلاقي ذات المصير فقد أثبتت قدرتها الفذة على قتل الميكروبات والبكتريا. ولكنها لن تحقق تلك الأحلام الحارة التي تناثرت صورها في كل مكان، فادّعت أن الطبيب الحديث يملك في جعبته عقاقير سحرية تقوم بالمعجزات. فلا نزال نتخبط في دياجير الظلام حيال الأمراض الداخلية للجسم وطرق علاجها. ولدينا مجموعة كبيرة من الأمراض نجهل كل الجهل مقاييسها ورد فعلها. وليست عقاقيرنا الحديثة سوى نقطة في خضم المعارك التي يشنها الانسان على البكتريا بأنواعها.

ومعرفة المفعول الصحيح للعقار لا تدرك بمجرد اكتشافه، بل جرت العادة أن تجتاح العالم فورة حماسة تحمل العقار ما لا طاقة له على احتماله، فتتناثر الادعاءات من كل حدب وصوب. وبعضها صحيح والبعض الآخر مجرد أوهام واشاعات. ففي بدء الحرب الأخيرة مثلاً انقسم العلماء الى فريقين حيال أهمية « السلفا ». وقبل أن يخوض الجنود البريطانيون غمار موقعة دنكرك حرصت الأدارة الطبية على تزويد جعبة الاسعافات الأولية لكل جندي بمقدار من « السلفابيريدين » المتبلورة. ولما انقشعت المعركة فاضت الصحف في وصف المعجزات التي أنقذت سيقان الجنود، وأذرعتهم، وشتى أعضائهم باستخدام « السلفا ».

ولما دخلت أمريكا الحرب أيضاً انتابت رجالها ذات الحمى فزوّدوا كل محارب بحبوب «السلفا» ليبتلعها فتقيه الأمراض، وتكسب جسمه المناعة. ولكن ما كادت سنة ١٩٤٥ تقدم حتى صدرت أوامر رجال الجيش تحرم استخدام «السلفا» سوى بأمر الطبيب وتحت اشرافه. فقد بدا لهم أن فائدتها في منع انتشار العدوى تحتم تغلغلها في مجاري الدم. وظهر أيضاً أن تناولها عن طريق الفم أقوى مفعولاً من رشها على الجروح التي كان يغلب أن تكون مملوءة بالأقذار تبعاً للمكان الذي يصاب فيه الجندي ويسقط.

فاذا قارنا هذا الهبوط في الاقبال على استخدام «السلفا» مع ما كانت تتمتع به من سمعة خلاّبة في عام ١٩٤٠ لأدركنا سر هبوطها الآن حتى كاد ستار النسيان يغطيها، فمنذ هذا العام أصيبت بخسائر فادحة، وهبطت موازين نجاحها في علاج الأمراض ووقاية الأجسام الى نسبة ضئيلة. فبعد ان كانت العلاج الناجع للانفلونزا والالتهاب السحائي وحمى التيفوئيد والتهاب الرئة وغيرها قلبت لها الحقائق والميكروبات ظهر المجن، فلم تعد التعويذة الواقية. وقد وزعت أخيراً ادارات الجيش قائمة ترشد الى استخدام العقاقير المختلفة في الأمراض المتعددة فاذا السلفا العتيدة فيما سبق لا يوصي بها سوى لمجموعة واحدة من ٣٣ مجموعة من الأمراض.

وهي لا تزال تتبوأ مركزاً فعالاً ومماثلاً «للبنسلين» و«الستربتوميسين» في علاج أربع مجموعات من الامراض ومنها السيلان والحمى القرمزية وبعض أنواع الالتهاب الرئوي. وفي تسع مجموعات أخرى ينظر اليها كعقار مشكوك في فائدته كما ثبت أنها عديمة القيمة بالنسبة لاثنتي عشر مجموعة من الأمراض.

﴿البنسلين في الميدان﴾ ولعلّ البنسلين هو أنجع عقار لم تصادفه الدعايات الكاذبة والأوهام المفتعلة. ولعلّ ذلك يرجع الى السرية التي احيطت بها تجاربه واكتشافه. فقد عثر عليه الدكتور الكسندر فلمنج لأول مرة في عام ١٩٢٨ ولكنه ظلّ بعيداً عن مجال الدعاية حتى احتضنه الجيش الأمريكي فعدّ من الأسرار العسكرية التي لا يجوز تداولها. وظلت تجاربه تدور في الخفاء في نطاق محدود، فلم يعرف بأمره من المدنيين سوى عدد يسير، فلما أعلن عن اكتشافه كانت أبحاثه قد تقدمت الى مدى بعيد وتحقق الأطباء من خواصه.

ومع هذا الحرص والدقة لم تخل اشاعاته من دجل وتهريج، فهو لا يقتل كل ميكروب كما يتوهم الناس. ولو أردنا تحديد تأثيره على الميكروبات لوجدناه فعالاً حيال قسم كبير منها، وهو المعروف باسم بكتريا جرام الموجبة. وجرام هو العالم الدانيمركي الذي

قسم البكتريا الى نوعين . فقد وجد ان جميع أنواع البكتريا اذا عولجت بصبغة معينة فإن قسماً منها يبدو أزرق اللون تحت المجهر ، بينما القسم الثاني لا يكتسب أي لون ، ومن ثمَّ أطلق على النوع الأول اسم بكتريا جرام الموجبة ، وأطلق على القسم الثاني بكتريا جرام السالبة .

وأثبتت التجارب ان البنسلين يفتك بجميع أنواع الميكروبات الموجبة الصبغة ، أما السالبة فانها تلفظه وتستأنف عملها في الفتك بالجسم وخلاياه . وعلى هذا الأساس فلا فائدة من « البنسلين » في علاج الأمراض التي تحدثها الميكروبات السالبة الصبغة مثل حمى التيفوئيد والالتهاب السحائي وغيرها . ولحسن حظ الانسان ان أكثر أمراضه وأشدها فتكاً تنتج من ميكروبات النوع الأول فتقع تحت تأثير البنسلين العجيب .

﴿ تناقض غريب ﴾ وكان كل هذا حسناً يشف عن أمل باسم ، ونتائج لامعة براقة ولكن الأطباء لاحظوا شيئاً غريباً فقد شاهدوا أكثر من مرة أن الميكروبات التي كان مفروضاً أن يفتك بها البنسلين لا تعبأ بأمره ، بل تظل تمرح كأنها لم تتعرض لذلك السم القاتل . وتقدم اليها ملايين الوحدات فتلتهمها وتظل على حالها في الفتك بجسم الانسان

وجاء شهر يناير عام ١٩٤٥ فانتشر وباء ميكروب سبحي بين جنود سلاح الطيران الأمريكي في ميدان كيسلر بحوض المسيسبي وتكررت ذات الظاهرة في ميدان لوري بحوض نهر الكلورادو في مارس عام ١٩٤٦ . وكانت ميكروبات الأمراض من الأنواع التي ثبت علميًّا ان «البنسلين» شديد الفتك بها . ولكن أحلام الأطباء تبخرت عندما عالجوا المرضى بالبنسلين ، فلم يشف الجنود ، ولم تختفِ الميكروبات ، بل ظلت حية تتكاثر وتفتك بأجسام الجنود .

وتسرَّبت أنباء الأوبئة وتلقفها رجال الصحافة يروون هزيمة « البنسلين » فيما سبق له الانتصار فيه . واهتزَّ الأطباء والعلماء في عنف ، وبدأوا ينظرون الى العقار الساحر نظرة يأس ، حتى صرح الدكتور هانز موليتور مدير معهد مرك بقوله « قد لا تمضي سنوات قليلة حتى يفقد (البنسلين) كثيراً من قدرته على علاج جانب كبير من أخطر الأمراض السائدة » .

ولم تكن هذه الظاهرة جديدة على الأطباء ، فان البكتريا تؤلف نوعاً من المقاومة حيال كل عقار . وقد عرفت هذه الخاصية عند استخدام (السلفرسان) المعروف بفتكه الشديد بميكروبات الزهري . كما شوهدت في (الكينا) عند علاج الملاريا . وكان من الغريب أن لا تظهر أيضاً حيال (البنسلين) .

﴿الميكروب يتحصن﴾ وتحدث هذه المناعة في الميكروبات عند ما تكون كمية العقار قليلة تخمد البكتريا ولا تقتلها. فبعد فترة وجيزة تفيق ثانية ولكنها تكون قد كوّنت في جسمها مواد كيميائية تقاوم سموم العقار. وهذه الميكروبات ونسلها لا تتأثر بهذا العقار بعد اكتسابها لهذه المناعة. ولحسن حظ البشرية أن البكتريا لا تكتسب المناعة سوى حيال عقار واحد في وقت واحد. فاذا أخفق (البنسلين) في الفتك بها أمكنك الالتجاء الى السلفا أو أي عقار آخر يقاوم المرض.

ولعقار (السلفا) بين جنود الجيش سجلات حافلة بمثل هذه الحوادث. فقد كانوا يلجأون الى جرعات السلفا القليلة في جعباتهم لمقاومة مرض السيلان فتنجح فترة في اخماد المرض، ولكن ميكروباته كانت لا تلبث أن تستعيد نشاطها أقوى مما كانت، فيشتد فتكها بالمريض الذي لا يجد مفرّاً من الالتجاء الى المستشفى. وفي مثل هذه الحالة يجد الطبيب أن عقار السلفا عديم النفع مهما زاد في جرعاته.

وفي احدى المرات نقل بعض الجنود المصابين بالسيلان من الميدان الى معسكر قرب أحد مواني استراليا، ومضت فترة قصيرة فاذا المعسكر موبوء بهذا المرض الخبيث، واذا عقار (السلفا) عديم النفع في علاجهم جميعاً لأن الجنود الذين نقلوه الى غيرهم كانوا قد تعاطوا كميات السلفا التي كانت في جعباتهم مما أكسب ميكروبهم مناعة. فلما انتقل ميكروبهم الى الآخرين احتفظ هو وذريته بذات المناعة. ولم ينقذ الموقف سوى طائرة أحضرت كميات كبيرة من (البنسلين).

وظهرت المناعة ذاتها حيال البنسلين أيضاً، فقد أصيب أحد الناس بخراج تحت أحد أضراسه. فلما ذهب الى الطبيب وضع له مقداراً من (البنسلين) فوق الخراج حتى اختفى. وكان من الطبيعي أن العقار قتل الميكروبات التي اتصل بها ولكنه لم يقض عليها كلها قضاء تامّا. فبعضها كان بعيداً عن البنسلين، ولم يصب سوى بتخدير وقتي. فلما أفاق كان قد اكتسب المناعة ضد العقار. ولم تمض سنة واحدة حتى تكاثر بالملايين فأعاد الحالة ذاتها بصورة أقوى. وانساب في الدم حتى هاجم القلب. ونقل الرجل الى المستشفى بين الحياة والموت.

وفحص الأطباء حالته وشخصوها بحالة التهاب الغشاء الداخلي للقلب وأحسن علاج لها هو (البنسلين) وأعطاه الأطباء الجرعة في أثر الجرعة وحالة الرجل تزداد سوء حتى أكره الأطباء الى تجربة عقار آخر أقل تأثيراً من (البنسلين) وكان من الطبيعي أن يفتك العقار الآخر بالميكروبات التي اقتصرت مناعتها على (البنسلين) وحده. فلما استعاد الأطباء سيرة

أمراض الرجل أدركوا مناعة ميكروباته التي جردت أفضل عقار من ميزة علاجه . وكانت هذه الحالة دليلاً جديداً على أن مقاومة أي ميكروب بالعقاقير تحتم أن تتوفر في الجرعات المقادير والوسائل الكفيلة بالقضاء على الميكروب كله قضاء تاماً .

﴿ مناعة لم يعرف سرها ﴾ ومثل هذه الدراسات والتجارب لا تعرف عن العقار وهو في اطواره التاريخية الأولى ، ولكنها تتكشف بمرور الزمن ، وبمراقبة أعراضها التي تفصح عن خواص العقار ، وخواص الميكروب أيضاً وكل هذه الحالات تضيف الى معلوماتنا جديداً ، وتضع أيدي رجال العلم على أفضل الوسائل لمواجهة الخطر ، ولكنها لا تعني أن العقار سحري ، بل تلفت النظر الى ناحية من الجهل العام بطبيعة الأمراض الداخلية وعلاجها .

ولا تزال في جعبة الميكروبات الفتاكة أنواع من المناعة التي لا يدرك سرها انسان . ويقدرها بعض الاخصائيين في فنون مقاومة الميكروبات بنحو ١٠ ٪ من الميكروبات التي تستطيع التهام أي عقار فتاك لأخواتها دون أن يبدو عليها أي تأثير بل تظل على فتكها بالجسم .

﴿ عقار نادر « ستربتوميسين » ﴾ ومن العقاقير الطريفة أيضاً « الستربتوميسين » ففي عام ١٩٤٣ استخرج الدكتور سلمان وكسمان مادة جديدة اكتشفها في عفن وجده في حقل قرب جامعة رتجر . وكان لأبحاثه دويها كالمعتاد فقد اكتشف العقار السحري الثالث من العفن . ورغم الأبحاث الكيميائية والجهود المتواصلة فلا تزال كمياته قليلة ونادرة . فقد ظلّ الجيش الامريكي فترة طويلة يستنفذ وحده نحو ٩٥ ٪ من انتاجه الكلي .

وبلغ من دقة تحضيره وندرته ان الجيش الأمريكي أراد أن يجد وفرة منه في خريف ١٩٤٥ فشحذ همم جميع المعامل الكيميائية في أمريكا لتقدم له ألفي أوقية في الشهر من العقار ، ولكن كل جهودها لم تدبر أكثر من ٧٠ أوقية في الشهر .

وكانت هذه الندرة وصعوبة التحضير من العوامل المنعشة للاشاعات فتناقلت الألسن انه ليكمل نقص « البنسلين » . فبينما الثاني يفتك بالميكروبات التي تصبغ باللون الأزرق تبعاً لطريقة جرام ، فان العقار الجديد سلاح شديد الخطر على الفصيلة الأخرى وهي التي لا تتلوّن . ومن ثمّ بزغ الأمل في أن العقار الجديد قادر على علاج أمراض المجاري البولية ، والتهاب البريتون ، والسل ، وحمى التيفوئيد ، والكوليرا .

﴿ خيبة أمل ﴾ وقد نشر القسم الطبي بالجيش الأمريكي تقريراً وضع باشراف ادورد

بولاسكي من أكبر الاخصائيين في وسائل مقاومة الميكروبات . وتناول التقرير في بحثه موضوع هذه الميكروبات السالبة التلوين ، فعرض للتجارب دون أن يقرر النتائج تحاشياً للخطأ ، ومنعاً لانتشار الأوهام . فعرض حالة ٧٠٠ مريض منها ٣٥٠ لحالات التهابات المجاري البولية الخطيرة . وقرّر ان العقار لم يؤد الى نتيجة حاسمة سوى في ٥٠ ٪ من الحالات . كما وجد ان ذات المناعة التي يكتسبها الميكروب ضد البنسلين أو السلفا تتوفر ضد « الستربتوميسين » . أضف الى ذلك ان مجرى البول يجب ان يكون خالياً من الموانع كوجود حصوة في الكلى أو خرّاج .

وكانت النتائج أيضاً مخيبة للآمال في ١٧٥ حالة من أمراض العظام والتهابات الأنسجة الناتجة من الجروح . فقد كان النجاح حليف ٤٠ ٪ فقط من الحالات . ويظهر أن علاج هذه الحالات يحتاج الى نظافة تامة . فيجب استخدام العقار للقضاء على البكتريا وحدها . أي بعد إزالة الأجزاء الميتة من العظام أو الأنسجة بالعمليات الجراحية .

ولا يمكن الاستغناء عن العمليات الجراحية في هذه الحالات والاستعاضة عنها باستخدام العقار لأنه في هذه لا يؤثر على ميكروبات جرام السالبة اللون ، بل يعطيها مناعة ضده فيصبح العقار عديم الجدوى .

وبقيت ١٧٥ حالة أخرى تناولت مختلف أمراض ميكروبات جرام السالبة وكانت نتائجها حسنة في بعض الحالات الخطرة التي تنتاب الدم والحمى والإلتهاب السحائي حيث كان النجاح ٨٥ ٪ اذا كان المريض لم يتلق أي علاج من قبل . ووجد الأطباء أيضاً أنَّ حمى التيفوئيد تعالج بنجاح تام بالعقار إذا أعطيت بمقادير وافرة خلال ثلاثة أسابيع من غزو المرض للجسم ، واذا كانت الميكروبات أيضاً لا تمتاز بتلك المناعة الغريبة التي لم يعرف لها مورد .

❊ تأثير محدود وضار أحياناً ❊ وأثبتت تجارب الجيش كما ورد في هذا التقرير أن عقار « ستربتوميسين » ليس قتالاً لكل ميكروبات جرام السالبة . فهو لا يؤثر البتة على حمى التيفوئيد في مراحلها الأخيرة ، ولا على قرح المعدة والدوزنتاريا . كما أنه يشارك البنسلين في خاصية الفتك ببعض الميكروبات الموجبة من الفصيلة الأخرى ذات اللون الأزرق .

وكانت تجارب الجيش الخاصة بالسل محدودة وأثبتت أن العقار يفتك بميكروبه في بوتقة الاختبار ، ولكنه قليل الفائدة إذا أعطي للانسان . ولاحظ الأطباء أيضاً أن للعقار تأثيراً ساماً على نحو ٢٠ ٪ من المرضى . ويخدر بعض الأعصاب المتصلة بقدرة

الإنسان على الوقوف والسير وحفظ توازنه . فبعد تعاطي جرعات العقار كان الدوّار ينتاب المرضى فيتخبطون في غرفهم على غير هدى

وظن أن أعصاب العين هي التي تسبب هذا الارتباك فأجريت التجارب على المرضى في غرف مظلمة لا ترى العين فيها شيئاً ، فكان المرضى يترنحون باستمرار مما يدل على أن العقار يؤثر على أعصاب التوازن ذاتها .

وقد أجريت هذه التجارب في نحو ٣٠ مستشفى كانت كلها تحت اشراف الدكتور بولاسكي . وكانت النتائج كما رأينا مخيبة للآمال حتى صرّح بقوله (اذا كنت تريد أن تكون متفائلاً حيال هذا العقار ففتش عن شيء آخر). وليس معنى هذا أنه فقد الأمل في فائدة العقار ولكنه يرى أنه يحتاج الى دراسة أدق فإن مفعوله خارج جسم الإنسان يدل على قدرة فذّة في الفتك بالميكروبات

﴿ البداية لا النهاية ﴾ وهو يقول في هذا السبيل (يجب على الناس أن يدركوا أننا على وشك العثور على قاتل ميكروبات جرام السالبة التي لا نعرفها كل المعرفة . وإن عقاراً مثل (الستربتوميسين) ليس في الواقع إلاّ مفتاح التجارب لا نهايتها . وكلما زادت معلوماتنا عن تركيبه ومفعوله ، فانه سيكون مرشداً لاكتشاف عقار أكثر كمالاً منه .

ولا يزال الأخصائيون يوالون بحوثهم لعلهم يعثرون على هذا العقار الكامل . فيوالي الدكتور سلمان وكسمان مكتشف (الستربتوميسين) أبحاثه . وقد عثر على عقار رابع سماه اكتينوميسين (١) . وهو قوي الى درجة يمكن بها استخدامه في قتل الفيران .

ومن شهور أعلن نبأ اكتشافه لعقار جديد سماه نيوميسين (٢) وله كل مميزات عقار ستربتوميسين في محاصرة الميكروب والفتك به . ويقال إنه أقوى مئة مرة من الستربتوميسين وقد تمت كل تجاربه في المعمل بنجاح تام وبقي أن يجرب على الحيوانات لمعرفة مدى فائدته للبشرية .

والواقع أن كل العقاقير المعروفة الآن ذات نفع كبير في مكافحة الأمراض ، ولكنها قد تكون أيضاً مؤذية اذا لم تستخدم بالطريقة الفعالة ، وبالنسب الضرورية ، لأن اساءة استعمالها ستعطي الميكروبات مناعة تتيح لها مهاجمة الجسم في غفلة من الطبيب والمريض ولكن دراستها دراسة تفصيلية ستسفر ولا ريب عن نتائج لها قيمتها في مقاومة الأمراض التي تفتك بالبشرية .

فوزي الشتوي

---

(١) Actinomycin

(٢) Neomycin

الصحة الاجتماعية

العناية بصحة العامل

حجرة اسعاف العمال

﴿ الموقع ﴾ يفضل ان تكون الحجرة وسط محل العمل حتى يمكن الوصول اليها من كل النواحي في أقصر مدة . ويفضل ان تكون سهلة الوصول من المدخل العام حتى يمكن فحص العمال المستجدين بعيداً عن المعمل كما يستحسن ان تكون بعيدة عن الضوضاء وعلى مستوى الأرض .

﴿ أقسام الحجرة ﴾ ولو ان مكان اسعاف العمال يطلق عليه عبارة (حجرة الاسعاف). إلاّ أنه في الحقيقة مبنى يحوي عدة حجرات . وهذا المبنى يقسم عادة الى قسمين : قسم للرجال وقسم للنساء اذا ما تواجد الجنسان . أما إذا تواجد جنس واحد فطبيعي ان يكون ذلك قاصراً عليه . وعلى كل حال فكل قسم يجب أن يشمل حجرة انتظار وأخرى للعلاج وثالثة للفحص ورابعة للطبيب أو الممرضة أو الممرض حسب الحالة . وفي بعض المصانع تخصص حجرة للتدليك وأخرى لإجراء العمليات الجراحية . ويفضل أن يشرف على المبنى شخص له خبرة طبية وان تكون مواضع تقابل أسطح الحجرات مستديرة وان تكون مزودة بوسائل منع تسرب الأتربة ، وان يكون التصميم مما يسمح للنقالات بالدخول والخروج بسهولة . ويشترط أن يكون الضوء متوفراً طبيعياً أو صناعياً في كل وقت وان تتوفر وسائل التدفئة والتهوية ويمنع كل شخص من الاقتراب من مبنى الاسعاف إلاّ للغرض الذي من أجله شيد .

﴿ الموظفون ﴾ موظفو حجرة الأسعاف سواء كانوا تحت اشراف طبيب مباشر أو بدونه يشترط فيهم ان يكونوا مخلصين في مهنتهم (مهنة التمريض) ومهنة الأمانة . فمن

البواب الى الكاتب الى الممرض يجب ان يكونوا قائمين بمهنتهم خير قيام حافظين على سر المهنة منتبهين الى كل تغيير في صحة العامل مهما كان صغيراً . إذ بهذه الوسيلة فقط يمكن تفادي أخطار العمل وأعراضه مبكراً . ودلتنا التجارب ان العامل لا يبوح بمرض أو بشكوى إلاَّ في مبنى الأسعاف وان هذا الشعور لا يقويه إلاَّ اهتمام مقابل من ناحية حجرة الاسعاف وموظفيها .

ويجب أن يكون التمريض متوفراً في كل وقت العمل حتى يتمكن العامل من الذهاب الى حجرة الاسعاف والاستفهام فيها عن كل ما يخصه بعد التصريح له من ادارة المصنع . والعمال الذين يطلبون رأياً طبيًّا من الطبيب يحدد لهم ميعاد خاص .

واذا كان المصنع يشغل مكاناً فسيحاً وجب إقامة أفرع لحجرة الاسعاف في جهاته البعيدة تحت اشراف ممرضين متمرنين . وهؤلاء يشرف عليهم رئيس . ويطلب من كل هؤلاء أن يكونوا قد تلقوا من قبل وسائل الاسعاف وألموا بها جيداً .

وإذا تواجد طبيب وجب أن يكون عمله شاغلاً له كل الوقت . فلا يسمح له بتعاطي المهنة خارجاً . ومن أعمال هذا الطبيب الاشراف على دوسيهات العمال الصحية واعطاء الشهادات وعمل الاحصائيات وتقديم التقارير للادارة .

﴿ أثاث الحجرة ﴾ يختلف أثاث الحجرة باختلاف الصناعة ولو أنه في جملته متشابه في جميع المصانع . ويشترط في حجرة الاسعاف البساطة والرخص وتوفر العقاقير وتوفر الاضاءة وبعض الأدوات كالملاقط لاستخراج الأجسام الغريبة من العين وجهاز لتثبيت العظام المكسورة وجهاز للأشعة السينية لتشخيص الكسور ومعرفة أمكنة الأجسام الغريبة بأجزاء الجسم . أما العقاقير اللازمة للغيار على الجروح من مراهم ومحاليل وقطن وأربطة الخ . فمن الواجب تواجدها أيضاً . وأهم عقاقير الغيارات في المصانع هو الفلافين والبارافين (Flavine & Paraffin) وذلك للجروح . وتبسط العقاقير كثيراً وذلك بالاحتفاظ بمزيج لاسعال وآخر للمعدة (عسر الهضم) وثالث للاسهال الخ . فاذا احتاجت الحالة الى رأي الطبيب حوّلت إليه . أما أمراض الجلد فأحسن علاج لها بصفة دائمة هو محلول الكلامينا (Calamine) يوضع على الموضع المصاب لحين العرض على الطبيب .

﴿ العلاج ﴾ جميع الاصابات البسيطة يجب معالجتها في حجرة الاسعاف بدقة خصوصاً الاصابات ذات العلاقة بالأصابع والمفاصل وأوتار عضلات اليدين . وفي حالة عدم تواجد حجرة عمليات يكتفى بوضع الغيار المطهر بعد نظافة الجرح جيداً حتى لا تحصل مضاعفات واصابات العين الخفيفة كدخول جسم غريب فيها يجب أن تسعف بيد ممرض متمرن .

* * *

وهناك كثير من الأمراض (حقيقية ووهمية) يرجع أصلها الى طبيعة الصناعة . فبعض الروائح تحدث عند بعض العمال غثياناً . وبعض الضوضاء يحدث عند البعض صداعاً، كما أن غذاء الكانتين كثيراً ما يسبب نزلات معدية معوية . وكل حالة من هذه الحالات تعالج حسب ظروفها .

أما الحالات المرضية التي لا تمت الى نوع العمل بصلة فهذه يستحسن أن تعطى الأجازة اللازمة وتحوّل على الطبيب المعالج . لكن كثيراً ما يحصل أن العامل يفضل علاجاً بسيطاً من مبنى اسعاف المصنع وخصوصاً اذا كانت الاصابات بسيطة كسعال أو نزلات أنفية أو نزلات معدية معوية أو صداع أو دوخة أو اضطرابات في الطمث . . . الخ . والعقاقير التي يتحتم الاحتفاظ بها في مبنى الاسعاف مخصص لها مقال بمفرده .

وقد تكون حجرة الأسعاف وسيلة سهلة لتنفيذ علاج بعض العمال من أمراض لا دخل لها بالعمل فاعطاء الحقن للدمامل أو للنزلات الشعبية يمكن أن يعمل في مبنى الاسعاف وقت مزاولة العامل لعمله وذلك بناء على رأي الطبيب المعالج .

﴿ ضرورة فحص العمال قبل التحاقهم بالعمل ﴾ يجب فحص كل عامل جديد قبل التحاقه بالعمل للتأكد من خلوه من الأمراض المعدية ومن أن صحته تساعده على القيام بعمله فلا يحتاج الى اجازات مرضية طويلة مما يسبب ارتباكاً . وهذا الفحص ضروري أيضاً لضمان سلامة العامل لأن بعض الاصابات قد تعرضه الى أخطاء جسيمة أثناء العمل .

﴿ السجلات ﴾ أضمن وسيلة للمحافظة على الانتاج وصحة العمال أن يخصص دوسيه لكل عامل يدوّن به تاريخ التحاقه ومرتبه الخ . . . كما يدوّن به أيضاً حالته الصحية والامراض التي يصاب بها والعلاج الذي يعطى له . وبعض المصانع تفضل استعمال (طريقة الأرشيف)

فتخصص لكل عامل (كرتاً) يدوّن به حالته الصحية وأمراضه وتواريخ تطعيمه ضد الأمراض المعدية الخ ...

ويخصص سجل لاصابات العمال من العمل على حدة يدوّن به تاريخ حصول الاصابة وكيفية حصولها واسماء الشهود ومدة العلاج واسم الطبيب المعالج ونتيجة العلاج ... الخ للرجوع اليه في حالة اذا ما رفعت دعوى تعويض . ولذلك فيفضل كثيراً تخصيص سجلان أحدهما خاص بالحوادث السابق ذكرها، وثانيهما خاص بالأمراض العادية التي لا تمت الى العمل بصلة .

ومن هذه السجلات يمكن لرئيس مبنى الأسعاف أن يكتب تقريراً شهريًّا وتقريراً سنويًّا يثبت فيه تعداد الاصابات ونوعها ومقدار الاجازات المرضية وأسبابها . ومن هذه التقارير يمكن للمصنع أن يقدر مبلغ خسارته من جراء اصابات عماله ومدة تغيبهم .

وكلما كان التقرير وافياً كلما أمكن الوصول الى وسائل للاقلال من الاجازات المرضية والحوادث . وهذه التقارير أيضاً تظهر للادارة أهم النقط الطبية الواجب توفرها في العمال بحسب نوع العمل .

وأساس كل نجاح هو قيام موظفي حجرة الاسعاف بدقة وضمير وتعتبر جميع البيانات المدوّنة بسجلات حجرة الأسعاف سرية، كذلك كرتات الصحة يجب اعتبارها سرية فلا يجوز اطلاع شخص عليها إلاّ بموافقة الادارة .

حوادث التسمم في الصناعة

كلما زاد تعداد المصانع كلما كثر تعرض العمال في التسمم . والنهضة الصناعية بالقطر المصري تسير سراعاً . ففي كل جهات القطر بدأت المصانع تشاد وبدأ الاقبال عليها يزداد من الجنسين الذكور والأناث . وحالات التسمم في الصناعة منها البسيط التي لا تلاحظ بسهولة فلا تقع تحت نظر الطبيب ومنها الشديد وهي التي تمر تحت نظر الطبيب والادارة . وادخال التحسين في وسائل الصناعة والعلاج قلل كثيراً من حالات التسمم كما ان انتاج صناعات جديدة زاد في حالات التسمم باستعمال سموم جديدة .

التسمم بالرصاص

يتبوأ الرصاص المقـام الأول بين المعادن السامة في الصنـاعة . وقد خفضت اصابات التسمم بهذا المعدن الى السبع تقريباً نتيجة للخطوات الوقائيـة التي اتخذت في السنوات الأخيرة .

وصناعة الخزف تحدث في بلاد الانكليز حالات تسمم بالرصاص إلا ان هذه الحالات قلّت الآن . والتسمم بهذا المعدن يحدث نتيجة طلاء الخزف (تزجيجه) بغمر الخزف في سائل الزجاج الحاوي لـكمية كبيرة من أكسيد الرصاص . وهذه الحالات بدأت تقل باستعمال الملابس النظيفـة للعمال اسبوعيًّا وبتغيير ملابس العمل بالملابس المنزلية وغسل الأيدي والأوجه عند الانصراف من المصانع . وغسل أرضية الحجرات التي يصنع فيهـا التزجيج بالماء الجاري بدلاً من كنسها في حالة الجفاف قلل كثيراً استنشاق الأتربة المحملة بالرصاص . واستبدال الزجاج السائل الحاوي للرصاص بزجاج آخر خالٍ منه كان خطوة أخيرة لمنع التسمم المذكور .

وطلاء المنازل والحجرات بالألوان الحاملة لأملاح الرصاص عرض العمال القائمين بهذه العملية الى خطر التسمم بالمعدن المذكور أكثر من أي صناعة أخرى . وذلك لكثرة العمال القائمين بهذا العمل ويحصل التسمم المذكور نتيجة لازالة الطلاء القديم بورق الصنفرة واثارة الاتربة بهذه العملية فيسهل استنشاقها . ويمكن التغلب على ذلك باستعمال المياه وقت العملية واستـعمال ورق مسنفر لا يتأثر بالماء وبهـذه الوسيلة يمتنع استنشاق الأتربة المذكورة . والتسمم بالرصاص عن طريق الجهاز التنفسي تزيد أهميته عن التسمم به عن طريق الجهاز الهضمي مائة مرة .

أعراض التسمم بالرصاص

أهم عارض هو المغص المعوي المصحوب عادة بامساك وفي الحالات الشديدة بقيء . بعد ذلك يأتي عارض فقر الدم أو الانيميا . وبفحص كريات الدم الحمراء يلاحظ رسوب مواد بشكل نقط صغيرة داخل بعض كريات الدم الحمراء . وكلما كبر حجم هذه النقط كلما

كانت الحالة شديدة . ومن هنا وجب فحص دماء العمال القائمين بهذه المهن والمعرضين للتسمم بالرصاص .

وهناك عارض هام آخر هو شلل الرصاص — يصيب أي مجموعة من العضلات ولكنه يصيب أكثر عضلات الزراع مسبباً استرخاء اليد .

ومن الأعراض المهمة للتسمم بالرصاص العارض المخي — ويبدأ فجأةً مصحوباً بتشنجات صوتية التي تنتهي بغيبوبة أو هلوسة .

ورسوب الرصاص على اللثة يحدث خطًّا أزرقاً هو عارض هام للتسمم بالرصاص .

﴿ طرق الوقاية ﴾ أهم وسيلة لمنع التسمم هو استعمال (شفاطات) الهواء في ازالة هواء حجرات العمل فيمنع بذلك وصول الاتربة المحملة بأملاح الرصاص الى الجهاز التنفسي .

وقد ثبت من التحاليل التي عملت على دماء وأبوال العمال حيث لوحظ أن الزلال البولي يتوالد بكثرة في المسمومين بالرصاص .

وطبيعي أن نظافة العمال المستمرة من حيث الاستحمام خصوصاً بعد نهاية العمل وتغيير الملابس عاملان هامان لمنع هذا التسمم .

التسمم بالزئبق والزرنيخ

وليس التسمم بالزئبق والزرنيخ أقل حصولاً من التسمم بالرصاص — والتسمم بالزئبق يتواجد عادةً بين العمال القائمين بعمليات القبعات من الفلين ومن مستحضرات الزئبق والبارمترات .

أما التسمم بالزرنيخ فأقل حصولاً من الزئبق وقد يكون حادًّا كما قد يكون مزمناً ويحصل من استنشاق مركبات الزرنيخ مثل ارسينيت الصوديوم

التسمم بالغازات والأبخرة والسوائل

التسمم بهذه المواد أكثر حصولاً من التسمم بالمواد الصلبة السابق ذكرها . وقد أخذ تعداد هذه الحالات يزداد بكثرة في السنوات الأخيرة .

﴿ أمراض الأتربة ﴾ تختلف حجم ذرّة التراب من ١ ميكرون الى ١٥٠ ميكرون وتحدث الأتربة المذكورة في صناعة التفتيت وطحن الصخور وصناعة الاسبستوس في عمليات النسف . أما الأبخرة المسببة للمرض ذات العلاقة بالصناعة فهي عبارة عن أبخرة كلوريد النشادر وأبخرة الزنك والرصاص ويمكن اعتبار الدخان نوعان من التراب إلاّ أنه أقل خطراً .

ويمكن قياس كمية الأتربة المحملة في الهواء بعدّة طرق أهمها الطريقة التالية وهي التي تتلخص في ارسال كمية من الهواء المحمل بالأتربة في أنبوبة رفيعة الطرف موضوعة رأسيًا فوق سطح مبلل بالماء . وبهذه الطريقة يجتذب ٩٥٪ من التراب الموجود بالهواء على هذا السطح ، ويمكن عدّ ذرّات الأتربة وفحصها بالمجهر أو وزنها بميزان التحليل الكيماوي . ولا تعد ذرّات الأتربة إلاّ بعد مرور ٢٠ دقيقة.

* * *

قد اتضح الآن بصفة قاطعة أن استنشاق الأتربة أخطر كثيراً من ابتلاعها فاستنشاق أتربة الرصاص أخطر ١٠ مرات عنه بالابتلاع . ذلك لأن حوالي نصف الأتربة التي تستنشق تستبقى في الرئتين .

وذرات التراب التي ترسب على الشعب تخرج بطريق التنفس والسعال أما الذرّات التي تصل الى ذات الرئة فلا سبيل للخلاص منها إلاّ عن طريق افتراسها بكريات الدّم البيضاء

ومعنى هذا أن وسائل المقاومة في الجسم هي التي تتحكم في خلاص الجسم من هذه الأتربة فاذا كان الجسم سليماً عموماً ورئويًا فان كريات الدم البيضاء كفيلة بافتراس هذه الأتربة والتخلص منها . أما اذا كان الجسم ضعيفاً بقيت هذه الذرّات في خليات الرئة وقتلتها وأحدثت تليفاً حولها . ويشاهد ذلك واضحاً في حالات التسمم بالسليكا. واذا استمر الحال على ذلك تحوّلت مساحة كبيرة من الرئة الى مادّة ليفية عديمة الفائدة ، بل وخطرة لشدّة تعرضها للاصابة بالدّرن . ومن هنا يتضح السبب في قصر النفس والنهجان كعارض أول للتسمم بالأتربة .

وأهم أمراض الأتربة هو مرض السليكوزس الناتج من تأثير مادّة ال (Silica) على الرئة وأيضاً مركبات السليكات (الاسبستوس) وهذا المرض يصيب العمال الذين يشتغلون في تفتيت الأحجار باستعمال عجلات من الحجر الرملي . إلاّ أن هذه الحالات قلّت باستبدال الحجر الرملي المذكورة بمادّة (Alumina) و (Carborundum) وغيرها — وهذا المرض يصيب أيضاً عمال مناجم الذهب والذين يشتغلون في جوف الأرض بالمناجم ويستنشقوا الأتربة المتصاعدة من عمليات النسف ومن عمليات التفتيت الدقيقة داخل المناجم .

ولذلك يجب فحص هؤلاء العمال بين حين وآخر اكلينيكيًّا — وبالأشعة لمعرفة بدء اصابتهم بالسلسيكوزس والدرن. ومن جهة أخرى اشترط استعمال المياه ووفرة التهوية. فعمليات التفتيت والتثقيب الصغيرة يجب أن لا تعمل بآلة جافة بل يشترط فيها تواجد الماء. كذلك عملية فصل الصخور المتفتتة عن الأتربة يجب ألاّ تستعمل إلاّ بعد تواجد الماء

ويصيب السليكوزس أيضاً عمال مناجم الفحم بنفس الطريقة .

طرق الوقاية والعلاج

(١) يحلل الهواء في الأمكنة المتعددة لمعرفة كمية الأتربة فيها كما سبق ذكره .

(٢) كثرة التهوية .

(٣) كثرة استعمال المياه .

(٤) مراقبة النظافة .

(٥) استعمال آلات تفتيت لا تحدث ذرات السليكا .

(٦) استعمال شفاطات الهواء .

وعلى العموم يمكن تخفيض كمية الأتربة في الهواء الى حدّ يسمح للعمال بالعمل فيه بدون ضرر.

[يتبع]

الدكتور حسن كمال بك
مدير عام مصلحة الصحة الاجتماعية

السيد محمد رشيد رضا

صاحب المنار

والاستاذ الكبير عباس محمود العقاد

أبى المصور كل الاباء أن ينشر كلمة ما تعقيباً على المقال الذي نشره في العدد ١٢٨٦ منه الصادر في ٣ يونيو سنة ١٩٤٩ في تجريح إمام من أعظم أئمة المصلحين في جميع العصور وهو السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار رضي الله عنه وأرضاه فأين هذا الاباء من حماية الحق والعدل والحرية وهي عناصر الحياة الاجتماعية التي ما خلقت صاحبة الجلالة الصحافة إلا لصيانتها والذود عنها . وبارك الله في المقتطف شيخ الصحافة العربية الذي يعرف كيف يحمي الحق والعدل والحرية ويضرب الامثال للناس لعلهم يرشدون .

وإني لأرجو من نشر هذا المقال أن أرد للسيد الامام اعتباره وأرجو أن يكون ما عند حضرة الكاتب الكبير من مطاعن فيه قد انتهى فيتم لي ما أردت وإلا فلم يبق إلا أن أرجو من حضرته أن يتفضل بنشر ما بقي عنده منها لعلي أستطيع أن أبين وجه الصواب فيها كما بينته في هذا فيستريح فؤادي .

عبد الله امين

كتب الكاتب الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد في العدد ١٢٨٦ من المصور الصادر في ٣ من يونيو سنة ١٩٤٩ تحت عنوان : « أعلام مصر الحديثة كما عرفتهم » : و : « عالم فذ لا يعني بالمعارف العصرية » : مقالاً في السيد الإمام محمد رشيد رضا صاحب المنار .

وكان قد كتب مثل هذا المقال فيه أيضاً في العدد ١٨٢ من جريدة روز اليوسف اليومية الصادر في ٥ من سبتمبر سنة ١٩٣٥ فجمعت المقالين ودرستهما فوقع في نفسي أنهما أقرب الى الذم منهما الى المدح .

غير أني واثق من أن حضرة الكاتب الكبير لم يرد مَدْحاً ولا ذمًّا وإنما أراد أن يكون مؤرِّخاً منصفاً بريئاً من التحيُّز والمحاباة فيذكر الحسنات والسيئات جميعاً كما قال في آخر مقاله الأول وهو : لو كان الغرض من التأبين أن يقال عن كل إنسان إنه أفاد كلَّ الفائدة لبَطَلَ معناه ولحِقَ بالقول الجزاف الضائع في الهواء . وقد شبع الشرقيون من القول الجُزاف حتى اكتظُّوا كظَّةً لا يحمد معها مزيد فلنعرف للرجل حقه فننصفه

وتنصف التاريخ فما يَبخَسُ العاملين حقوقهم في الواقع إلاَّ أولئك الذين يَروْن ما عملوه قليلاً لا يكفي للثناء والتقدير فيزيدون عليه ما لم يعملوه وما لم يستحقوه وهذا هو البخس بعينه ونقص التقدير في أنقص معانيه :

وإنّي لأُؤيّده في هذه القاعدة الذهبية كلّ التأييد وقد كان السيد الإمام نفسه من المؤمنين بهذه القاعدة العاملين بها وهي هي نفسها طريقة أهل السنة من الأئمة الذين عُنوا بجمعها وبدراسة رواتها وبالجرح والتعديل .

وما كان لي أن أتوقع من حضرة الكاتب الكبير الراثي ولا من السيد الامام المرثي المحاباة في مثل هذا المقام ولا في غيره لأن المحاباة جناية على التاريخ تأبى النفسُ الكبيرةُ أن تتردّى فيها . وما أقبح نفساً تتردّى في هذه الهاوية .

ولذلك تجد المرثي نفسه حين رثى صديقه شاعر العرب الشيخ عبد المحسن الكاظمي العراقي رحمه الله في آخر عدد أصدره من المنار وهو الجزء الأول من المجلدة الخامسة والثلاثين من مجلدات المنار لم يتحرّج أن يذكر ما يعرفه في المرثي من نواحي الضعف لأنه لا يستطيع أن يقول غير ما يعرف وما يعتقد ولا يستطيع أن يسكت عن قول ما يعرف وما يعتقد ولأنّ النقص من شيمة الإنسان والكمال المطلق لله وحده .

وهذه القاعدة نفسها هي التي تضطرني اضطراراً وتدفعني دفعاً الى بيان وجوه الحق والحقيقة فيما نسبه حضرة الكاتب الكبير الى السيد الامام في مقاليه المذكورين . ففي المقال الأول منها :

(١) أنه كان مصلحاً بالكتابة والتعليم على البعد ولم يكن مصلحاً بوحي الحضور وروح الشخصية كما كان جمال الدين ومحمد عبده ودُعاةُ هذا القبيل .

(٢) وأنّ ضعفه لا يرجع إلى قلّة العلم كما يرجع إلى قلة الإلمام بالنفسيات ومسالك العواطف والشعور واستدلّ على قلة الإلمام بالنفسيات بما كان منه مع مشركي الهنود حين كان في الهند وبحديثه الى الناس في المسجد المجاور لمنزل المرحوم الشيخ عبد الرحيم الدمرداش باشا وكان الموقف موقف هداية وإصلاح .

(٣) أنه أقدر رجل في زمانه على كشف الشبهات وحل المشكلات التي تساور عقول

الأوساط من المتعلمين قراء الفقه والدين وأنه إذا بدا عليه الضعف أحياناً فإنما يبدو عليه حينما يعترضه سؤال سائل أعلم من هذه الطبقة توحي إليه بشبهات أعظم من تلك الشبهات .

وفي المقال الثاني منها قوله :

(٤) ولكنني أسأل نفسي دائماً بعد قراءتها «مجلة المنار» من أين يُلِمُّ بالنفس هذا الشعور بشيء غير مستساغ في كثير مما يكتبه الشيخ رشيد وهذا رأي كثير من القراء أيضاً .

ثم قال : إنه ضَرْب من الحاجة إلى الصقل ولا سيما الصقل من ناحية الكياسة والفكاهة .

(٥) عناية الشيخ بالاطلاع على المعارف العصرية العامة أقل بكثير من عنايته بالإطلاع على مسائل الفقه والدين .

واستدلَّ على ذلك بأن الشيخ كأنَّهُ سَمِعَ نُبُوءَةَ حين سمع الأستاذ يعقد صلة بين الكبد وبين بعض الأمراض وبأنه توقف في فهم المقصود من لفظ منو وهو عبد الله مينو

(٦) وأنَّ السيد الإمام أبى أن يبيعه الجزء الثاني من تاريخ الأستاذ الإمام إلاَّ مع الجزء الثالث منه مع وعده إياه بأنه سيشتري الجزء الثالث قريباً وقد كان يتوقع اعفاءه إياه من ثمن الجزأين معاً .

(٧) وأنَّ حديثاً دار بينهما في المترو في صدق الرسالة فكان دليل حضرة الكاتب الكبير «على قدر فهمي» أرجح من دليل السيد الإمام .

هذه هي كلُّ المعايب التي وردت في المقالين .

(١) فأمَّا أنَّه كان في دعوته إلى الهدى والإصلاح بالكلام أقل من الإمامين الجليلين الحكيمين السيد جمال الدين والأستاذ الشيخ محمد عبده تأثيراً فهذا صحيح فقد كان همهما الأكبر أن يتركا رجالاً يحفظون آراءهم ويعرفون مقاصدهم في الإصلاح ويسلكون طرقهما فيه لا أنْ يدوِّنا كتباً وقد كان في وُسْع كل منهما لو شاء أن يكتب في الهداية والدعوة إلى الإصلاح عشرات المجلدات . وكان همّ السيد الإمام خليفتهما أن يدوّن علمه المقتبس منهما ومن أئمة الإصلاح السابقين والمنسوج على منوالهم ، وأن ينشره بالكتابة في أنحاء العالم وقد ترك أكثر من أربعين مجلدة من مجلدات المنار وغيره ملأت مشارق الأرض ومغاربها علماً ونوراً وهداية وكلُّ إنسانٍ ميسَّرٌ لما خلِقَ له .

ولا أقول إن السيد الإمام كان مصلحاً بالكتابة والتعليم على البعد دون المشافهة ووحي الحضور كما يقول حضرة الكاتب الكبير وإنما أقول : إنه كان مصلحاً بالكتابة وبالمشافهة على البعد والقرب غير أنه كان بالكتابة أمتن تحريراً في الطروس وأبلغ تأثيراً في النفوس منه بالمشافهة ولذلك أسباب : —

منها : رغبته في انتشار دعوته في العالم الاسلامي كله بأخصر طريق وأقصر وقت وهذا لا يكون إلاَّ بالكتابة . ومن أجل ذلك أنشأ المنار وعكف على تحريره وعلى الكتابة في الصحف السيارة وعلى تأليف الكتب وهذا من شأنه أن يشحذ فيه ملكة الكتابة ويزيدها قوة على قوتها ويرد ملكة الكلام عن أن تساميَ ملكة الكتابة فيه حتى أصبح قلمه أعلى بلاغة وأوضح بياناً من لسانه . ومنها : توارد المعاني الكثيرة على ذهنه حين الكلام الشفوي واباحته لنفسه في المشافهة ما لا يبيحه لها في الكتابة من الاستطراد والخروج من موضوع الى موضوع فيضيع على السامع القصد وإن كان هو من شأنه أن يحتفظ دائماً بجوهر الموضوع الأصلي وبالعود اليه وإيفائه حقه من الكلام. ومنها : حماسته الملتهبة التي تزيدها أحياناً المناقشة أو الشجو حدة فيتعسر على مخاطبه متابعته . ومنها أنه ما كان يتكلم طبعاً ولا يخطب فيما نعهد ونعلم من أمره إلاَّ ارتجالاً . أما الكتابة فمجال الدرس والتمحيص والتحرير بلا شك فيها أوسع منه في الكلام ولهذا كان في تحريره أبلغ تأثيراً وأوضح بياناً منه في كلامه وليس هذا بضائره .

(٢) وأما قلة إلمامه بالنفسيات فهذا وصف لا يمكن أن يصدق بأية حال من الأحوال على السيد الامام وهو الذي عرف روح الاسلام أصدق معرفة وخبر العالم الاسلامي أعظم خبرة وزلو أكثر أقطاره وأقام فيها وامتزج بشعوبها امتزاج الماء بالعود والدم بالعروق واندمج مع العاملين على تحريرها طول حياته في البلاد السورية والمصرية والتركية والهندية والعربية وفي أوربا والأمثلة التي ساقها حضرة الكاتب الكبير لا تنهض حجة له ذلك أن السيد الامام ما كان واعظاً دينيًّا للعوام يدعوهم الى الفضيلة وينهاهم عن الرذيلة فيحتاج الى الاحتيال عليهم واستمالتهم بما يلائم أهواءهم من الطرق إنما كان مصلحاً دينيًّا اجتماعيًّا سياسيًّا يريد أن ينتشل الأمم الاسلامية من مجاهل الضلالة العمياء والذل والاستعباد

ينتشلهم من الشرك وهو أصل الفساد والاستعباد .

وكان يعلم من علم النفس وعلم الاجتماع ومن طبائع الشعوب التي امتزج بها وبزعمائها أن إصلاح الأمم لا يمكن أن يتم أو يتحرك بشيء من السرعة إلا بالأحداث العظيمة كالحروب والثورات والصيحات العظيمة التي تُصخُّ الآذان وتوقظ الصم النيام ، لذلك ما كان يعرف الرفق والهوادة في الدعوة الى الاصلاح الأكبر وهو محاربة الشرك وما كان يبالي أنه ضيف المرحوم الشيخ الدمرداش شيخ الطرق الصوفية وأنه يطعن في طريقته وهو ضيفه وفي مسجد مجاور له وبين مريديه وأتباعه ، بل إنه كان يقصد ذلك قصداً وليس هذا الموقف أول موقف ولا آخر موقف له من نوعه بل مواقفه من هذا النوع لا تحصى فيُظَنُّ ذلك جَهْلاً منه بالنفسيات وما هو بجهل وإنما هو علم عظيم .

وأمَّا ما كان في الهند إذ عرضوا عليه شجرة يُقَدِّسُها البراهمة ويقرّبون إليها القرابين وأنه ذهب في إقناعهم إلى أنها لا تضر ولا تنفع ولا تَخلق من دون الله ولا ترزق. فالذي أعرفه من علم السيد الواسع وقريحته المتقدة وسمِعتُه منه في هذا الحادث وسمِعَه غيري من اخوانه ومريديه أن البراهمة إنما يقدسون هذه الشجرة وأمثالها لأنها مظهر من مظاهر الفيض الإلهي كما يقول علماؤهم . وقد كان كلامه في هذا معهم لا مع عامة الناس طبعاً وما كان يخطر ببال السيد الامام أنهم يقدّسونها لأنها تحيي وتميت. فالذي يعرفه السيد في جميع المشركين من جميع الملل أنهم يعتقدون فيما يقدسون من نبات وحيوان وجماد وأناسيّ أحياء وأموات أنها يُتَقَرَّبُ بها اليه سبحانه وتعالى كما قال : وما نعبدهم إلا ليقرّبونا إلى الله زُلْفى : والمراد بالعبادة معناها الأصلي المستفاد من معنى العبد واشتقاق اللفظين واحد فهو الخضوع والذلة للمعبود وهذا لا شك لا يكون إلا خوفاً من مكروه أو رغبة في محبوب يُرْجَى من المعبود دفعه أو جلبه ولو بالوساطة . وهذا ما يُدْرَكُ بالبداهة من حال من يعبدون غير الله .

(٣) وأمَّا ضعفُه عن إقناع المثقفين ثقافة عالية . (٤) لقلة علمه فيردّه أنّه كتب في عقائد الدين وأحكامه وشبهاته ومشكلاته وفي سوء فهم المسلمين له وانحرافهم عنه وفي إصلاحهم إصلاحاً دينيًّا واجتماعيًّا ما شاء الله أن يكتب وسارت كتاباته في أنحاء العالم

الإسلامي وجُلُّها إنْ لم يكن كلُّها مخالفٌ لما أَلِفَهُ الناس وعرفوه فكان صدمة لهم في عقائدهم وأعمالهم وفيهم صفوة العلماء من رجال الدين واللغة والطب والهندسة والقانون وغيرهم من ذوي الثقافات العالية الممتازة . ومنهم من لم يكتف بتحصيل العلوم العالية في بلاده فسافر واستزاد من العلم في أوربا ، ومع ذلك كله فقد اقتنعوا بما جاء به وتَلَقَّوْهُ بالقبول وأُعْجِبُوا به ودَانُوا له . وهل كان المنار إلاّ مجلة المثقفين ثقافة عالية ممتازة .

هذا إلى أن الناس أمام الشبهات الدينية ومشكلاتها لا ينقسمون الى مثقفين ثقافة عالية وثقافة متوسطة وإنما ينقسمون إلى مؤمنين مسالمين راغبين في معرفة الحقائق الدينية والى كافرين بالدين معاندين مكابرين وفي كل من هؤلاء وهؤلاء المثقفون ثقافة متوسطة والمثقفون ثقافة عالية ، بل والأُمّيُّون وكثير من هؤلاء وهؤلاء غارقون في البدع والخرافات والأوهام والضلالات الدينية الى الأذقان . وكثير من هؤلاء وهؤلاء من اقتنع بدعوة السيد وقليل منهم من لم يقتنع : (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين) .

على أن انتفاء المقدرة على اقناع المثقفين ثقافة عالية الجاحدين المنكرين لا يلزم منه انتفاء القدرة العلمية والقدرة الاقناعية اللتين برز فيهما السيد الامام كل التبريز .

فان كان بعد ذلك في الدين ما يتعذر إدراك معناه أو اقناع كل مرتاب به كالحروف التي في أوائل السور أو بعض النصوص المتشابهة أو إقامة البرهان العقلي عليه كعذاب القبر ونعيمه وانه روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار وكالجنة والنار وكالصراط وأنه أرق من الشعرة وأحد من السيف وغير ذلك من السمعيات وهي ما كان طريق العلم بها السمع الوارد في الكتاب والسنة مما ليس للعقل فيه مجال أو كان المخاطب ليس له نصيب من الدين منكراً له يتعذر إقناعه فان شيئاً من ذلك لا يمكن أن ينهض دليلاً على أن السيد الامام كان من شأنه أنه أقدر على كشف الشبهات وحل المشكلات التي تساور عقول الأوساط من المثقفين قراء الفقه والدين دون غيرهم ممن هم أرقى من هذه الطبقة علماً وتفكيراً .

(٥) وأما قلة علمه بالمعارف العصرية العامة فان كل الذي استدلّ به حضرة الكاتب الكبير على ذلك مسألتان :

إحداهما : أنه كان معه في مجلس ومعهما سعيد شقير باشا وان الحديث استطرد الى الصحة فقال سعيد باشا انه يحس إعياء وخواء يشبه الدوخة فسأله حضرة الكاتب الكبير: هل كشفت على الكبد ؟ فقال : إن المصيبة كلها من هذه الكبد : ولاح على الشيخ رشيد كأنه قد سمع مني نبوءة فسألني : هل درست الطب : فليس في هذه القصة إلاّ هذا السؤال : هل درست الطب : أو لا يجوز أن يكون هذا السؤال مداعبة منه للاستاذ أو أن يكون تنبيهاً له على أن الكلام في هذا ونحوه إنما هو من شأن الطبيب أو لشيء آخر أو هل يعقل أن الكلام في الكبد وفي المعدة وغيرهما أصبح خافياً على العامة أو على صغار المتعلمين حتى يخفى على مثل السيد إني استأذنه أن نستبعد هذا الدليل إنه ساقط من تلقاء نفسه . وأما المسألة الأخرى فهي لفظ منو الوارد في كلام للاستاذ الامام الشيخ محمد عبده في الجزء الأول من التاريخ ويراد به عبد الله منوء فعلى فرض التسليم بأن هذا اللفظ اشتبه على السيد الامام أفلا ينسب هذا الاشتباه الى السهو وزحمة العمل في الطبع والكاتب الكبير خير من يقدر زحمة المطابع وضغط تجاربها على الكتّاب .

وقد سها حضرة الكاتب الكبير نفسه في المقال الأول فقال عن السيد الامام (وأسعده الحظ بالسماع عن السيد جمال الدين الأفغاني في صباه ومصاحبته الأستاذ محمد عبده بعد ذلك فانتفع ونفع وقام بعهد التلمذة على هذين الرجلين العظيمين جهد المستطاع . ولعله أصبر تلاميذهما على المتابعة والمثابرة والاستقلال بعد ذلك في نهج الهداية والاصلاح) على حين أنّ السيد الإمام لم يلق السيد جمال الدين حكيم الشرق الأكبر ولم يكن تلميذاً له وإنما أخذَ علمه وحكمته وطريقته في الاصلاح عن حكيم الشرق الكبير الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده وقوام هذه الطريقة تمحيص الحقائق وتخليصها من البدع والخرافات والأوهام والضلالات واعلانها للناس وإن خالفت عقائدهم وما ألفوه وآلمتهم وأغضبتهم وأثارتهم بشجاعة نادرة وبلا مبالاة .

وبعد فإنّ الجهل بعبد الله منو من أوله لآخره لا يعد دليلاً على عدم العناية بالمعارف العصرية، أوليس في كبار العلماء والأدباء في أنحاء العالم من يجهل من هو خيرٌ وأبقى ذكراً وأشهر من عبد الله منو، ولم يكن ذلك الجهل دليلاً على عدم عنايتهم بالمعارف العصرية. هذا وإنّ عدم العناية بالمعارف العصرية حكم عام والأحكام العامة كقواعد العلوم لا يمكن أن توضع إلاّ بعد استقراء جزئيات كثيرة. فلو أن حضرة الكاتب الكبير أحصى عشرين غلطة في المعارف العصرية لجاز له حينئذٍ أن يحكم هذا الحكم ولكن بدون عنوان ضخم. أما أن يقيم حكمه على مسألة واحدة فهذا غبن وظلم.

(٦) وأما الامتناع عن بيع الجزء الثاني من تاريخ الأستاذ الإمام إلاّ مع الجزء الثالث منه فهذه مسألة مالية أدبيّة لها حساب في الطباعة وكان نظامها حينئذٍ أي منذ أربعين سنة لا يسمح بمثل ذلك. فهذه الحادثة لا يمكن أن تدل على حب للمال وقد كان السيد الإمام من الزاهدين فيه وفي الدنيا وما فيها مع علمه الراسخ بقيمة المال وبتأثيره في حياة الأمم ودعوته المسلمين الى العناية به، وما كان المنار على سعة انتشاره المذكورة في صدر المقال الثاني ليقوم بنفقاته وكان سد العجز من المطبعة والكتب. وقد كان السيد الإمام من أجود الناس ولم يكن يتصدّق على المستجدين المحترفين بالملاليم، وإنما كان إذا عرف موضع حاجة آثر صاحبها على نفسه بما يملك قلّ أو كثر. وما كانت تطيب له لقمة شهيّة إلاّ إذا أكلها معه آخرون. ولقد مات رضي الله عنه وهو غارق في بحر من الدين وعفا الله عن حبيبه وصديقه حضرة الأخ الصالح محمد بك نجيب محمد الذي أقيم وصيًّا على القصر ووكيلاً عن الكبار فأنقذ التركة بجده وحسن تدبيره وحزمه مع العفة الخارقة للعادة وخلصها وكبر القصر وحسنت حالهم بجدّهم وكدّهم واجتهادهم وبحسن رعاية نجيب بك وبرضا الله عن والدهم.

(٧) وأما الحديث الذي دار بينهما في المترو على صدق الرسالة وشهده معهما حضرة الأستاذ الجليل السيد عبد الرحمن عاصم ابن عم السيد الإمام وزوج أخته ووارث علمه وأعلم الناس بسيرته فإن الدليل الذي ذكره السيد الامام وهو: إنّ المحقق من سيرة النبي

عليه الصلاة والسلام كافٍ للدلالة على وحي القرآن لأنه (ص) لم يأت بمثل هـذه البلاغة قبل الأربعين . وكان يشكو انقطاع الوحي فترة بعد نزول القرآن الكريم عليه : دليل على صدق الرسول (ص) في أن القرآن من عند الله لا من عنـده هو، والدليل الذي ذكره حضرة الكاتب الكبير وهو : وإنما المعجزة الكبرى هي الرسالة المحمدية التي لا ينهض بها فردٌ ولا أمة بغير معونة إلـهيّـة وإنما المعجزة الكبرى هي أثر القرآن في الضمائر وأثره في تواريخ الأمم الاسلاميـة وغيرها : دليـل على إعجـاز القرآن لأن القرآن معجز بلفظـه وبمعناه جميعاً .

وكلا الدليلين حسن صحيح لازم، وكلاهما لا يفوت السيد الامام. غير أنَّ مكان الحديث حينئذٍ وزمانه وهو في قطار سريع بين مصر الجديدة والقاهرة والمسافة قصيرة والمركب عام لم يكن يصلح للاسترسال في مثل هذا الحديث ولذلك دُعيَ حضرة الكاتب الكبير لمقابلة خاصة في مكانٍ خاص ووقت أوسع فلم يجب ولو أنه أجاب وتردد على الداعي غير مرّة لتغيَّر رأيه فيه وحكمه عليـه . أما أن النابغة الذبياني ما سمي نابغة في بعض الأقوال إلاّ لأنه لم يقل الشعر إلاّ وهو رجل وأنه وغيره أجْبَـلَ أي انقطع عنه الشعر فترة فان بين النابغة وبين الرسول (ص) فرقاً يقضي على هذا التمثيل ، فالنابغة وُلد ونشأ في بيئة شعرية للشعر فيها المَقام الأسمى الذي لا يطمع في السموّ إليه مقام ، فالشاعر هو حامي القبيلة ورافع لوائها ومُعلي قدرها وهو فخرها في المجامع وعُـدّتها في الشدائد عليه تعتمد وبه تعتز ، فمن المؤكد أن نبوغه وليد هذه البيئة ولا بدّ أنه كان في صباه يحب الشـعر ويحفظه ويرويه ويُكدي في نظمه قبل أن يظهر بأول رائعة من روائعه أما الرسول (ص) فقد نشأ في جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء، ليس للنثر فيها ذكر. وقد جاء بشيء لا عهد للدنيا به جاء بقرآن لا هو شعر ولا هو نثر مرسل وهو مع ذلك كما قال حضرة الكاتب الكبير آنفاً جامع لخير البشر في الدنيا والآخرة فأين شعر النابغة بل شعر شعراء الجاهلية مجتمعاً منه.

عبد الله أمين

من الادب الحبشي

الضبع وابن آوى

ترجمة الدكتور مراد كامل

« في يوم من الأيام التقى ضبع وابن آوى في غابة . فقبض الضبع على ابن آوى ثم قال له : إما أن تحضر لي ماء وإما أن تهيء لي مكاناً للراحة . فقال له ابن آوى وهو يرتعد من الخوف : لو كنت رجلاً لما جسرت على معاملتي بهذا الشكل السيء . فسأله الضبع قائلاً : ما هو الرجل ؟ فأجاب : اذا أردت فتعال معي أدلك على الرجل . وبينما هما يسيران مرّا برجل مسنّ ، فسأله الضبع قائلاً : أهذا هو الرجل ؟ فقال ابن آوى لا ، هذا كان رجلاً ، وهو الآن ليس برجل . فاستمرّا في السير حتى لقيا صبيًّا ، فسأله الضبع : هل هذا هو الرجل ؟ فأجاب ابن آوى لا ، هذا سيصير رجلاً . وبينما هما في طريقهما مرّا بشاب في يده بندقية ، فسأله الضبع : هل هذا هو الرجل ؟ فأجاب ابن آوى قائلاً : هذا هو رجل حقًّا ، اذا كنت شجاعاً فاقبض عليه . فذهب الضبع لينقض عليه ، فأطلق الرجل رصاصة أضابت أذنه ، فصدّق الضبع حينئذٍ ابن آوى وفرك أذنه ثم ولى هارباً .

خليل مطران

١٨٧٢ _ ١٩٤٩

خليل مطران

الرجل والشاعر

١٨٧٢-١٩٤٩

كأنما كان الخليل ينظر من سُجُف الغيب دنوَّ منيَّته ، عندما خاطب تمثالاً نصفيًّا له بقوله :

مثـالي إنني أرنو إليـك وإنَّ بي رفقا
دنا أجلي فيا جذلي ولـكن أنت قد تبقى
أخاف عليك أن تحيا ومن يحيا ولا يشقى (١) ؟

وصدقت بصيرة الرجل ، فما كادت تنقضي سنتان على هـذه المناجاة حتى زفر الخليل آخر أنفاسه وثوى بين ظلال الموت ، وأضواء الخلود .

أجل ، مات الخليل في مساء ٣٠ يونيو ١٩٤٩ بين انتفاضات القلوب الشاعرة ، ولوعات الأرواح المتصوِّفة ، وبموته فقد الشرق العربي ، رجولة ممتازة ، وشاعرية نابغة .

وما ريب أن خسارتنا الانسانيـة والخلقية بفقده ، لا تعادلها إلاَّ خسارتنا الأدبية والفنية بموته ، فلقـد كان الرجل فذًّا في الأدباء ، إذ توحدت فيه الشخصية بالنبوغ ، واتَّسم بخلال قلبية وعقلية نادرة في زمان ، نحن أحوج فيه الى من يرفع أرواحنـا ، ويضرب لنا المُثُل في حب الخير والتواضع والأريحية والإيثار .

وهل في أدبنا الحاضر ، أجمل وأبدع مما قاله هذا الرجل ، في أواخر أيامه ؟

كان في الشـعر لي مرام خطير فعـدا طوقي المرام الخطير

---

(١) الكتاب الذهبي لمهرجان خليل مطران بك سنة ١٩٤٧ ص ١٦

هائمٌ في الوجود أسأله الوحـ   ي كما يسأل الغني الفقير
أكبروني ولست أكبر نفسي   أنا في الفن مستفيد صغير
لا يضق صدر شاعر بأخيه   يكره الفضل أن تضيق الصدور
والسماوات لو تأملت فيها   ليس تحصى شموسها والبدور
كل جرم يعلو ويصبح نجماً   فله حيز وفيه يدور
والنجوم التي تلوح وتخفى   ربوات وما يضيق الأثير (١)

* * *

تلكم النفحات الشعرية التي تليت في حفل تكريمه بين الوجوه المشرقة ، نتلوها اليوم بين الحسرات المكتومة ، ونجد فيها العبرة ، والهمسة الخفية الموحية بأنبل عاطفة ، إنها تفسيرٌ حقٌ لفطرة الرجل الأصيلة ، فطرة الحب التي اعتلجت بين جوانحه صغيراً ، وراودته شابـاً ، وسمت ودقت في كهولته وشيخوخته — أنها الشريان الهام في نسيج هذا القلب الكبير الذي ضوَّأ بالحب النبيل في شبابه وعبَّر عن هذا الحب في قصيدته « حكاية عاشقين » (٢) وبقيت أعطار هذا الحب بعد موت حبيبته ، وأفصح عن بقائه في القصيدة التي ناجى فيها عصفورة رآها في جنيف قرب تمثال جان جاك روسو (٣) فقال : —

سيري وولّي صدرك الـ   مشتاق شطر المربع
حتى إذا ما جئته   وشرعت أعذب مشرع
عُوجي ببستان هُنا   لِكَ في العراء مضيَّع
لي في ثراه دفينةٌ   كالكنز في المستودع
تخفي الأزاهر قبرها   عن أعين المستطلع
قولي له إن جئتهِ   يا أُنس هذا البلقع
أتُحس في هذا الثرى   نبضات قلب موجع ؟
هـذا حنين من فؤا   دِ محبك المتفجع

---

(١) الكتاب الذهبي لمهرجان خليل مطران بك ١٩٤٧ ص ١٤٩

(٢) ديوان الخليل الجزء الاول ص ١٦٠ (٣) ديوان الخليل الجزء الثاني ص ٢١

ولم يقف حب هذا القلب الكبير عند الحب الخاص النبيل ، بل امتدّ ، وامتدّ ، الى حب الموطن الأول ، والحنين إليه حنيناً لاهباً تشهد به طائفة من قصائده ، مثل « قلعة بعلبك » (١) و « للتأليف بين القلوب » (٢) و « تشوق » (٣) وتتحدّث به قصائده في موطنه الثاني مصر في مثل « يامصر » (٤) والى « حافظ ابراهيم » التي جاء فيها قوله :

« مصرُ » الحضارة والآثار شاهدة   « مصر » السماحة مصر المجدُ من قِدَم
« مصر » العزيزة إن جارت وإن عدلت   « مصر » الحبيبة إن نرحل وأن نقم
جئنا حماها وعشنا آمنين به   ممتعين كأن العيش في حُلُم

واكتمل حب الرجل ، واتسع مجاله فشمل الانسانية بأسرها ، وآيات برّه الايجابي . تتناقلها الألسن ، وتنطوي عليها قلوب العارفين ، والآونة الحاضرة ، لا تتيح الكشف عنها ، ولكنا نجد تفسير هذا الروح الانساني النبيل مبثوثاً في كثير من شعره . وبخاصة شعره القصصي الذي فتح به فتحاً جديداً في عالم الشعر الحديث ، فإنا لنراه يتألم لمصير عوّادة متسولة تموت مريضة بعد زواجها بعام في قصيدته البديعة « وفاء » (٥) ونلحظه ينعي على العاهر التي تقتل جنينها ، في قصته الشهيرة « الجنين الشهيد » (٦) ونسمعه يترحم على الشاب السري الذي يلقي بنفسه في الماء لخيبة حبه في قصته « المنتحر » (٧) ونلمس ثورته على أحد رؤوساء المذاهب الذي أصرّ على إبطال عقد زواج بين اثنين ، ولو تمّت بغيته ، لألحق بولدهما البرىء العار ، وهذه الثورة الهادئة تضمنتها قصته « الطفل الطاهر » (٨) وهي من أروع قصصه الشعرية على الاطلاق ومن نبع عاطفته الانسانية العميقة، ومما جاء فيها قوله ، مخاطباً الطفل البريء ، وناعياً على القس العاتي :

ياطفلُ قلّب طرفك المترددا   أو ما ترى شبحاً عبوساً أسودا
متجسساً لك من وراء ستار

---

(١) ديوان الخليل الجزء الاول ص ٧٧
(٢) ديوان الخليل الجزء الثاني ص ١٠٧
(٣) ديوان الخليل الجزء الثاني ص ٣٣٨
(٤) ديوان الخليل الجزء الثاني ص ٢٦٦
(٥) ديوان الخليل الجزء الاول ص ٨٤
(٦) ديوان الخليل الجزء الاول ص ١٩٩
(٧) ديوان الخليل الجزء الثاني ص ٥٧
(٨) ديوان الخليل الجزء الاول ص ٢٤٦

هذا أساء اليك قبل المولد وجنى عليك جناية المتعمد
ومن السماء دعاك صوب النار
لكن أراك تبشّ بشّة سامح وأراك ترمقه بعين الصافح
ما للهلال وللسحاب الساري

ولسنا نجد تدليلاً على تبيان تأصل فطرة الحب في قلب هذا الرجل الكبير ، أقوى وأروع من قصيدته « هل تذكرين » (١) فهذه القصيدة مع حلاوة موسيقاها وجمال صياغتها ، تمد الباحث ، ببعض السمات الأصيلة للخليل ، لأنها تروي بعض ذكرياته ، ومن هذه الذكريات يجد السيكولوجي مصدراً فذّاً لتعرف شخصية الرجل ، ورغباته في الحياة (٢) ، فهو يروي فيها تجواله مع إحدى بنات عمه وقريبة أخرى ، وصاحبة ثالثة ، ولهوهم في روضة ، وقطفهم العنب منها ، ثم انجذابه الى الرفيقة الغريبة ، ومحاولته إدخال البهجة على قلبها ، وعمل لعبة من الصلصال لها في هيئة عصفور ، ومما جاء في هذا القصيد عن ذكريات حبه الساذج ولهوه البريء قوله :

هل تذكرين ونحن طفلان عهداً بزحلة كله غُنْمُ
إذ يلتقي في الكرم ظلان يتضاحكان ويأنس الكرمُ
هل تذكرين بلاءنا الحسنا حين اقتطاف أطايب العنب
نُعْطي ابتسامات بها ثمناً وبنا كنشوتها من الطرب

ثم تساؤله عن النهر في القصيد ذاته يؤيد حبه لجمال الطبيعة ، واندماجه فيها ، وأنه في ذلك يقول :

والنهر ، هل هو لا يزال كما كنا لذاك العهد نألفُه
يَستقي الغياضَ زُلاله الشبما ويزيد بهجتها تعطفه
ينصب مصطخباً على الصخر ويسير معتدلاً ومنعرجا
يَطغى حيال السد أو يجري متضايقاً آناً ومنفرجا

---

(١) ديوان الخليل — الجزء الثاني ص ١٣٥

(2) Adler — What life Should mean to you.

متخللاً خضر البساتين متهللاً لتحيةِ الشجر
متضاحكاً ضحك المجانين لملاعب النَّسمات والزهر

ثم وصفه لجمال الصاحبة الغريبة وانجذابه اليها يعزّز فطرة هذا القلب المتيّم في الطفولة وفي ذلك يقول :

ما أنس لا أنس العقيق وقد جُزْناه بعد السيل نفترج
كان الربيع وكان يوم أحد ومسيرنا متمعج زلج
و « نبيهة » الكبرى ترافقنا مجهودة ضجت من التعب
ولها صويحبة ترافقنا حسناء كلُّ الحسن في أدَبِ
ضحّاكة كالنور في الزهر رقّاصة كالغصن في الوادي
كرّارة كنسيمة السحر ثرثارة كالطائر الشادي

ثم يروي بعد هذا أثر سحر الجمال فيه ، وما أوحى اليه من صنع لعبة لحبيبته ، وفي هذا الصنع دلالة مبصرة على استعداده الفطري لحب الفن والخلق ، وفي ذلك يقول :

حُسنٌ تملكني فأدبني ما شاء في قولي وفي فعلي
وبمثل لمح الطرف أكسبني خلقاً وعلمني على جهل
أوحى اليَّ دداً أجربه في آية من فطنة ودد (١)
فجمعت صلصالاً أركبه وصنعت عصفوراً لها بيدي

ولم يتمالك الشاعر أن يطير إعجاباً وفرحاً بهذه اللعبة التي صنعها على عين حبيبته ، فأبدى عجبه بما جبلَ ، وان لفّ هذا العجب في وشاح شفاف من التواضع ، قال :

صوّرت شبه الفرخ في وكر من غير سبق لي بتصوير
فأتى على ما شاءه فكري ورضيت عن خلقي وتقديري
ما كان هذا الفرخ معجزة فتانة الاتقان والحسن
كلاّ ولم أجعله مَعْجَزة (٢) لكفاءة الحذّاق في الفن

فهذا القصيد الفريد الذي أطلنا الوقفة عنده ، يحمل جملة دلالات على بعض خلال

---

(١) الدد = اللعبة (٢) معجزة = ما يعجز الغير عن الاتيان بمثله .

الرجل الأصيلة ، وهي (١) حبه المتأصل في صباه (٢) ونزوعه الى الجمال الطبيعي والانساني (٣) وشغفه باسعاد غيره (٤) وابراز هذا الشغف بطريقة عملية فنية (٥) وعجبه بصنعه ، عجباً مقروناً بالتواضع .

* * *

وهناك سمات أصيلة أخرى غير ما ذكرنا نعتقد أنها حكمت شخصية الخليل ، وهي الحرية ، التي قد تبلغ درجة الثورة ، والاقدام الذي قد يصل الى درجة المجازفة والمغامرة ، والاباء الذي نأى به عن مواطن التذلل حتى في أحلك الساعات ، وثبات خلقه ، وحيويته الدفاقة ، وهذه السمات تجلّت في مراحل حياته ، وتلوّن بها شعره ، وبرزت واضحة جلية في ملامح وجهه .

وأبرز هذه السمات ، وآصلها تحرره ، وجرأته ، واباؤه ، ولا أدل على تحرره من نفوره من الظلم في يفوعته ، وهجرته بعلبك موطنه الأول الى باريس ، ومساهمته في حركات البعث الوطني والقومي ومناصرته لأعلام الوطنية أمثال مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول ، ونزعته التجديدية في الشعر . هذه كلها من الدلائل الناطقة على روحه المتحررة ، وقصائده الشهيرة « مقتل بزرجهر »(١) التي نادى فيها بالشورى وكراهية الحكم الفردي و « الطفلة البويرية »(٢) التي روى فيها ابتهال طفلة صغيرة الى الله لنصرة أبيها وقومها فى الحرب — و « فتاة الجبل الأسود »(٣) التي روى فيها بطولة المرأة ودفاعها عن وطنها وغيرها من القصائد الا آيات بيّنات على أنفته من الظلم ودعوته الى الحرية .

وأبلغ آية على هذه الطبيعة المتحررة في رأينا ، قصيدته التي دافع فيها عن حرية الرأي وحمل على قانون المطبوعات في مصر ، وكان من نتيجة هذا الدفاع أن هدّده رئيس وزارة ذاك الزمان بالنفي ، فما كان من الرجل الحر إلاّ أن أجابه بقصيده الرائع الموسوم بـ « تهديد بالنفي »(٤) وهو أصدق شاهد على تأصل نزعته الحرة وفيه يقول :

أنا لا أخاف ولا أرجّي فرسي مؤهبةٌ وسرجي

---

(١) ديوان الخليل الجزء الاول ص ٩٩ (٢) ديوان الخليل الجزء الاول ص ١٣٧

(٣) ديوان الخليل الجزء الاول ص ١٥٤ (٤) ديوان الخليل الجزء الثاني ص ٩

فاذا نبا بي متن برّ فالمطيــةُ بطنُ لجّ
لا قولَ غيرَ الحق لي قولٌ وهذا النهجُ نهجي
الوعد والإيعاد ما كانا لديَّ طريق فُلج (١)

وقد صاحبت هذه الروح المتحررة ، نزعتان صديقتان هما الجرأة والاباء ، وقد انعكس أثرهما في عمله وفنه ، ويبدولنا أنه ورثهما من أمه المقدامة الحساسة ، وتجسمتا في وجنتيه العاليتين . ونتوء عظم الوجنة ، كما يقول المتفرسون المتعمقون آية الجرأة ، بل المجازفة .

ولا أدل على روحه الجريئة المقدامة من شغفه في صباه بركوب الخيل ، والسبق على متونها ، وقد سبب له هذا الشغف ، أن وقع كما يقول الدكتور اسماعيل أدهم (٢) مرة من فوق أحد الجياد فتكسرت بعض أضلاعه ؛ وتهشمت أرنبة أنفه وبقي أثر هذه السقطة في أنفه طول حياته .

وتجلت شواهد هذه الجرأة في بعض أعماله ، فلقد اشتغل الرجل بعد ترك أعماله الصحافية بالأعمال الزراعية والتجارية ، وقام بالمضاربات ، فكسب كثيراً وخسر كثيراً ، وقد انتهت به إحدى هذه المضاربات إلى خسارة فادحة ، فتوارى في أثرها عن الناس ، وأعرب عن حالته النفسية الأليمة بقصيدته الشهيرة الرائعة « الأسد الباكي » (٣) التي جاء فيها قوله :

وكم في فؤادي من جراح ثخينةٍ يُحَجِّبُها بُرداي عن أعين الناس
إلى عين شمس قد لجأتُ وحاجتي طلاقة جوٍّ لم يُدنَّس بأرجاس
أُسرّي همومي بانفرادي آمناً مكايد واشٍ أو نمائم دساسِ
يخالون أني في متاع حيالها وأيُّ متاع في جوار لديماس (٤)

وأروع تصوير لنفسه الحزينة الأبية قوله في القصيد ذاته :

ذروني أُنكِّس هامتي غيرَ متّقٍ ملامة روّاد وشبهة جُوّاس (٥)

---

(١) الفلج = الظفر (٢) بحث الدكتور اسماعيل أدهم « مطران شاعر العربية الابتدائي المقتطف ١٩٣٩ وهو أدق وأوفى بحث عن شعر خليل مطران (٣) ديوان الخليل الجزء الثاني ص ١٧

(٤) الديماس — الحفير من الارض (٥) جواس : جمع جائس وهو الطائف في مكان ما

في حُرَّةٍ بكْرٍ ضُلُوعي سياجُها   أراش عليها سهمه معتد قاسى
أعيد إليها كل حين نواظري   وأُخْفِضُ من عطفٍ على جرحها راسي

وأبلغ دليل على هذه الجرأة ، هو شعره الجديد الذي وثب به وثبة ، بعيدة ، لا يقدر عليها إلا موهوب جريء ، وأيَّا قلبنا شعره ، وجدنا تجارب شعرية لم يطرقها أحد قبله ، وطلاقة بيانية وأسلوبية ، وتحرراً من عبودية القافية ، لا نعرف شاعراً سبقه إليه ، وشاهد هذا التحرر في القافية قصيدته البديعة « فنجان قهوة » (١) التي دبجها في أواخر عام ١٩٠٢ ، وتُعدّ هذه القصيدة في رأينا آية جرأته الفنية ، والبذرة الأولى في الشعر المرسل وقد استهلها بقوله :

البحر ساجٍ والسكينة سائده   والليل داجٍ والمدينة راقده
غمر الظلام هضابها وجبالها   وقلاعها وصروحها فأزالها
شبه المحيط المستوى وبقاعه   ما لا يرى من شُمِّه وبقاعه
لا نجمَ في الأفق المحجب سافرٌ   خلل السحاب ولا سراج ساهرُ
وإذا أصاخَ الى الجهات مطيفٌ   سمعاً فلا رِكز يحسُّ خفيفُ
إلاَّ خُطا شبحٍ ضئيلٍ هائمٍ   كالوهم يسري في مخيلة واهم

* * *

ولم يساير الخليل في مراحل حياته ، وقدات شعوره ، ودفعات جرأته ، بل كبحت البيئة الظالمة وصروف الحياة ، وآلام الرجل وغربته ، خلائقه الفطرية الأولى التي ألمعنا إليها ، فاتكأ كثيراً على نفسه . وقمع انفعالاته وعواطفه الجارفة ، وذلك بقوّة عقله وشدة محاسبة ضميره ، وفي هذا يقول الخليل في حديث له : (٢)

« في المعاودة وحدها تاريخ تكوين شخصيتي . فقد كان هنالك عاملان يفعلان في نفسي : « شدة الحساسية ومحاسبة النفس » وبهذه المحاسبة ، أدخل الخليل عنصراً جديداً على نفسه ، وتمكن من إيجاد التوازن في شخصيته ، وان قلل هذا العنصر من حرارة كثير من أعماله الفنية .

---

(١) ديوان الخليل — الجزء الاول ص ١٢٣

(٢) هامش صفحة ٦٤ الدكتور اسماعيل أدهم — في كتابه « مطران شاعر العربية الابداعي » .

وآثار هذه المحاسبة نجدها في بعض قصائده الوطنية التي كان يرمي من ورائها الى اشمال الروح الوطني ، وإن رمز ولم يُصرح بهدفه وستر ولم يكشف ، وشاهد ذلك ، قصيدته « شيخ أثينة » (١) وهي نذير الى أهل أثينة الأذلاء لمقاومة استعمار الرومانيين الغاشم ، وقد اتخذ — كما يقول الأستاذ العزيزي (٢) « شيخ أثينة » ينفث في كل بيتٍ من أبياته روحه المتألمة لذل قومه ، كما اتخذ من قصيدة « مقتل بزرجمهر » السابق التنويه بها ، أداة لإبراز جبروت السلطان عبد الحميد ، عند ما شاهد أحرار العرب يقتلون ، وشاهد السلطان عبد الحميد لا يرعى لهم إلاً ولا ذمّة ، لأنهم قد ارتضوا العبودية ، وسكتوا عن مظالمه ، ومما جاء في هذا القصيد قوله :

فلأنت كسرى ما ترى تحريمه كان الحرام وما تحلّ حلالا
وليُذكَرَنّ الدهرَ عدلك باهراً ولتحمدنّ خلائقاً وفعالا
لو كان في تلك النعاج مقاومٌ لك لم تجيء ما جئته استفحالا

فالعهد الاستبدادي المظلم الذي عاصره ، وشهد فيه اشلاء المنقوم عليهم يثقلها الحديد وتطرح في أعماق البسفور ، ورأى قلم المراقبة التركية ينهال على الصحف . فتقفر حقولها وتغل أعناقها ، علمته هذه الأحداث المخيفة ، أن يكون ناقماً يكظم نقمته ، وثائراً يجتر ثورته (٣)

وتشهد قصائد كثيرة أخرى بتغلب عقله على عاطفته ، وهذه القصائد قد نعجب بها ، ولكنها لا تضرب بأوتارها في قلوبنا ، وهذا ما نلمسه في بعض قصائده الوجدانية مثل قصيدته « العالم الصغير مرآة العالم الكبير (٤) التي تحدّث فيها الى احدى حبيباته ، ولكنه مال عن مناجاتها الى فلسفة ما حوله من احياء الكون ، وقد استهلها بقوله :

---

(١) ديوان الخليل الجزء الاول ص ٢٦٤
(٢) « المجلة الجديدة - مايو ١٩٣٧ ، العدد الخامس من السنة السادسة مقال للاستاذ روكس زايد العزيزي بعنوان « خليل مطران وشعره »
(٣) المرجع السابق
(٤) ديوان الخليل — الجزء الاول ص ١٢٩ — وكتابنا « الشعر المعاصر » ص ٧٢

أرأيت صوغَ الدرّ في العقيان   هـذا حباب البن في الفنجان
فَلكٌ تمثـل شمسُـه ونجومه   أفلاكنا في السير والدوران
ليلى أجيلي الطرف فيه تنظري   سر الـكيان وآية الأزمان
تجدي سماواتٍ وسعنَ عوالماً   فتـانة الابداع والاتقان

***

فهذا التعقل الذي ساد أكثر حياته ولوّن شعره ، هو ثمرة من ثمرات حياته الخاصة وضغط المجتمع الذي عاش فيه ، فاضطره الى مجاملة الناس في أفراحهم وأتراحهم ، ولهذا زخر شعره بالمديح والرثاء والتهاني في حفلات الزفاف ، وقد كان أكثر هذا الشعر متكلفاً لأنه لم يصدر فيه عن طبيعة أصيلة ، ولم يخف الخليل هذه الأعراض التي طرأت على فطرته الأولى ، بل عبّر عنها في قصيد له مرفوع الى ناشر الديوان ، ضمنه مجاملته الناس في الرخاء والبأساء ، واغتفاره زلاتهم ، وجريانه ، كما يقول على حكم النهى ، دون مغالبة القدر(١) ويقول الانصاف ان الخليل ، وان هادن في بعض الأحيان فانه لم يهادن مرة على حساب الحق والضمير ، كما كان يفعل أدباء جيله ، بل استمسك بالحق دائماً ، ولم يتقلب مرة أو يتذبذب ، وهذه فضيلة يذكرها له الجيل الحاضر الصاعد .

ونعتقد أن «العزيزي» في مقاله خليل مطران وشعره(٢) ، الذي دبجه في المجلة الجديدة عام ١٩٣٧ ، لم يكن موفقاً في الحملة على الخليل لمجاملته الناس ، لأن هذه المجاملة ، ليست ملقاً كما ادّعى ، انما هي نزول على اعتبارات اجتماعية ، ما كان لمثل قلبه الـكريم الطيب ، أن يزورّ عنها ، أو يتحلل منها .

ونحسب أن ما جاء في شعره في الأغراض سالفة الذكر ، لا تمثل حقيقته النفسية الأصيلة وإنما الذي يمثل هذه الحقيقة ، هو شعره الوجداني الخالص وهو في اعتقادنا شعره الخالد ، هو هذا الشعر الذي نبع من شعوره الدفّـاق معبراً فيه عن خليقة أصيلة فيه مثل عاصفة الحب ونمثل لهذا بقصيدته « هل تذكرين » التي حللناها سابقاً ، أو معبراً عن انفعال الألم

---

(١) ديوان الخليل الجزء الاول ص٢٩٢ (٢) المجلة الجديدة «خليل مطران وشعره» الاستاذ روكس زايد العزيزي — (شرق الاردن) مايو ١٩٣٧ العدد الخامس من السنة السادسة .

واليأس في مثل قصيدته « الأسد الباكي » التي أسلفنا على ذكرها ، أو معبراً عن انفعالات نفسية وعواطف منوّعة ، كما في رائعته الباقية « المساء » (١) التي تحدث فيها عن حبه ، وآلام نفسه ، وجلال أحياء الكون حوله وقد لفّ خواطره في وحدة كاملة ، ومما جاء في هذا القصيد قوله :

متفردٌ بصبابتي متفردٌ بكآبتي متفردٌ بعنائي
شاكٍ الى البحر اضطراب خواطري فيجيبني برياحه الهوجاء
ثاوٍ على صخر أصمّ وليت لي قلباً كهذي الصخرة الصماء
والبحر خفّاق الجوانب ضائق كمداً كصدري ساعة الامساء
والأفق معتكر قريحٌ جفنُهُ يغضي على الغمرات والاقذاء

وقوله في القدة الثانية .

يا للغروب وما به من عَبرة للمستهام وعبرة للرائي
أوَليس نزْعاً للنهار وصرعةً للشمس بين جنازة الأضواء
أوَليس طمساً لليقين ومبعثاً للشك بين غلائل الظلماء
أوَليس محواً للوجود الى مدى وإبادة لمعالم الأشياء
حتى يكون النور تجديداً لها ويكون شبه البعث عود ذكاء (٢)

فهذا القصيد ، يعبر تعبيراً صادقاً عن حالة الرجل النفسية ، وهو يمدنا بمادة صالحة لتعرف شخصيته ، فهو يكشف بادي الرأي عن حبه المتأصل لحبيبته ، ولهفته لجمال الطبيعة ويُبين لنا قواه التفكيرية وخياله الخصب ، وتمازج هذه القوى بقواه الشعورية ، وفضلاً عن ذلك فإنه يلقي للسيكولوجي ضوءً ، على طابع شخصية الرجل ، فالقدة الأولى التي أتينا بها قريباً هي تعبير ذاتي عن آلام الرجل ، والقدة الثانيـة ، هي تعبير موضوعي عن الغروب وما يلابسه من خاطرات ، ومن هاتين ، يمكن القول بأن الخليل حتى في قطعه الوجدانية الذاتية ، يترك التعبير عن نفسه الى التعبير عن الدنيا الخارجة ، فهو في التعبير

---

(١) ديوان الخليل — الجزء الاول ص ١١٩ (٢) ذكاء = الشمس

الذاتي يمثل الانطوائية ، وفي التعبير الموضوعي يمثل الانبساطية ، وفي الجمع بينهما في قصيد واحد يمثل الطابع المتوسطِ بينهما (١) .

فهو يجمع حظًا من صفات الانطوائي ، وقسطاً من صفات الانبساطي ، حتى ليتعذر الحكم أي صفات هذين الطابعين تغلب عليه ، ومن صفات الطابع الأول ميله للتأمل ، والتفكير ومقدرته الأدبية ، ومثاليته ، وحبه للعزلة ، ومن دلائل ذلك : قصيدته الطويلة عيد الميلاد (٢) التي بلغت الأربعين بعد المئة بيت ، وفيها قوله :

أَحْبِبْ بكل عزلة   يأوي إليها الرجُلُ
وإن تَكن كحجرتي   لا شيء فيها يجمُلُ
في هذه الغرفة أَخْلُو للمعاني خَلْوَتي
أَسْكبُها في عَبراتٍ   مُرَّةٍ أو حُلْوَةْ
هنالك الاستقلالُ في   أسمى معاني الكَلِمهْ
لا يَتْهَمُ الانسانُ عينيهِ   ولا يخشى فَمَهْ
أستنزل الوحي لنفعِ الناس إن يُسَّر لي
وامنح العذرَ بِلاَ   ضنٍ وأَكْفَى عَذَلي
هنـاك ألقى الله بل   ألقى ضميري آمنـا
وليسَ كلٌ ساكنٍ   بيتاً يبيتُ ساكنا (٣)

وقد برزت نزعته الانبساطية في صور عملية شتى من البر والمؤاساة ، وحب الاجتماع وحب العمل ، والتساوق مع الدنيا المتغيِّرة ، وشواهد هذه النزعة في شعره ملموسة في كثير من الموضوعات العامة التي تناولها تناولاً عامًّا مقترناً بالفلسفة الخفيفة ، وفي تصويره الأشياء والشخوص تصويراً واقعيًّا ، وشعره زاخر بالآيات الشاهدة على هذا الاتجاه ، ونكتفي هنا بايراد بعض ما جاءَ في قصيدة « السيدة التاجره » (٣) مثالاً على طرقه الموضوعات

---

(١) كتابنا « الشعر المعاصر » ص ٧٣ (٢) ديوان الخليل الجزء الثاني ص ٢٤٦ إلى ص ٢٥٥

(٣) ديوان الخليل — الجزء الثاني ص ١٧٣

العامة ، وتحبيذه الإقدام على العمل ، ووصفه لسيدة غنية مهنت التجارة وصفاً واقعياً مقترناً بلمحات الجمال ، يقول :

أتاجرة النفائس والغوالي   من الطرَف المصوغة والحريرِ
لأنتِ عجيبةٌ بين الغواني   كعصرك بين خالية العصورِ
وهل عجبٌ كحانوتٍ غدونا   نراه مطلع القمر المنير
ثم يقول : ألا يا بنت عصرٍ ما لحيٍّ   به خَطَرٌ بلا عمل خطير
حَطَمْتَ القيد فيه ولم تراعي   سوى قيد الفضيلة في المسيرِ
ورُمت من الحياة مرام عزٍّ   يشق على العصامي القدير
نعم وأبيكِ ما للطهر حصنٌ   سوى خفر الشمائل والضمير
وأيٌّ رام بين الناس مجداً   فليس يعيبه غيرُ القصور (١)

وواضح من هذا أن شخصية الخليل كانت مركبة ، ماجت بين الانطوائية والانبساطية ، وعاشت في جو المثالية ودنيا الواقعية ، وفي جوّ المثالية أصابت الالهامات الخلاقة ، وعبَّت من نبع الجمال ، وفي دنيا الواقعية ، جدَّت وجاهدت ، ودانت بعبادة العمل ، ولكنها لم تتلوَّث بأوضار الحياة .

أجل ، انها شخصية فطرت كما أسلفنا على الحرية والجرأة ، وهامت بالحب والجمال ، كما أنها تحصنت بالذكاء والقدرة الفكرية ، وقوة التخيل ، وتصارعت في جوانبها القوّة الشعورية الدفاقة ، مع القوّة الفكرية ، فتغلبت الأولى حيناً ، وتغلبت الثانية أحياناً ، وتوازنت القوتان في أغلب الأحايين ، ومصداق هذا نجده في شعره المتوشح بالبساطة حيناً وشعره الذي سيطر عليه العقل أحياناً ، وشعره الجامع بين العاطفة والخيال والفكر جمعاً متناسباً في أغلب الأحايين — والظاهرة الجثمانية تعزز هذا ، فالوجنتان العاليتان الجريئتان تخفف من عنفوانهما ، جبهته العريضة المفكرة ، وعيناه اللامعتان الذكيتان ، وفمه المنطبق الحازم ، وذقنه المربعة القوية التصميم ، (٢) ولو شئنا الاستدلال بملامح الوجه على الغدة الصماء التي كانت تحكم شخصية هذا الرجل ، لاستطعنا القول ، بأن ذقنه المربعة . وحاجبيه

---

(١) القصور = العجز

(2) Character Reading by Fredrick Meier p. 150

كثي الشعر ، ووجهه الحاد ، وجمجمة رأسه الطويلة . هي من علائم سيطرة الغدة النخامية (١) وهي غدة التجلد كما يقول لويس برج في كتابه « الشخصية الانسانية (٢) وهي الغدة الضابطة القائدة للنفس كما يقول آخرون .

وإذا تركنا هذه الدلالات على تركب شخصية الرجل ، وألقينا نظرة على أعماله في مراحل حياته ، ألفينا ما يؤيد صحة رأينا تأييداً قوياً ، فقد نجم الرجل في بعلبك البلد العريق حضارة، وتلقى العلم على العلاَّمة « ابرهيم اليازجي » وهو حجة في اللغة والأدب وكان أثره فيه كبيراً ، وتملَّى جمال بلاده ، هذا الجمال المركَّب المنوَّع ، حيث الجبال الشم ، والبحر الجياش ، والأرز الصلب الدائم الخضرة ، ونفر الى باريس ، فجمع الى الثقافة العربية ، ثقافة غربية ، ونهل من نبع أدباء الخيال ، أمثال الفرد دي موسيه وهيجو ، كما أغرم بأدباء الكلاسيك ، أمثال راسين وكورني ، وفي عودته الى مصر ، وطنه الثاني ، مهن في الصحافة فساهم في تحرير الاهرام ، واللواء ، والمؤيد ، وظهر نبوغه الأدبي في تحرير المجلة المصرية والجوائب ، وخلَّف بهجرة الصحافة تراثاً من الشرف والكرامة والأدب الرفيع ، وتحوَّل الى الحياة العاملة ، فاشتغل بالمسائل التجارية والاقتصادية ، فكسب كثيراً وخسر كثيراً وانتهى به المطاف الى العمل بالجمعية الزراعية الملكية ، حيث اشتغل بمسائل الاقتصاد والحساب الجافة، وصبر عليها ، ووفق فيها كل التوفيق كما اختير مديراً لادارة الفرقة القومية.

وفي اثناء جهاده في سبيل رزقه ، تمكن الرجل من إغناء الأدب العربي ، بشعره الفريد، ونثره الرصين ، وترجماته الضليعة ، التي ماجت بين ترجمة عيون أعمال الأدباء الرومانتيك ، والكلاسيك ، فقد ترجم ليالي الفرد دي موسيه ورواية هرناني لفيكتور هيجو كما ترجم لكورني مسرحيات « السيد » Le Cid وسينا Cinna وبوليكت Polyeucte وترجم لراسين رواية L'incomparable Bérénice ، وانتقل الى المسرحية الانجليزية العالمية ، فاهتمَّ بترجمة روايات شكسبير الخالدة ، هاملت ، وماكبث، وعطيل ، وتاجر البندقية ، والملك لير ، ولم يقف عند ترجمة هذه الأعمال الأدبية البحت، بل تعددت نواحيه فاهتمَّ بنقل الثقافة الاقتصادية

---

(1) Glands Regulating Personality by Berman

(2) Human Personality by Louis Berg

والسيكولوجية ، فترجم كتاباً في الاقتصاد السياسي ، وكتاب « تعليم الارادة » (١) لپايو Payot وكتاباً في التاريخ الطبيعي لفيكتور ديري Victor Dury وكانت هذه الترجمات ، كما يقول الأستاذ زكي طليمات لا مثيل لها من حيث سلامة العبارة ، وقوة الأسلوب ، ووضوح المعاني (٢) وفضلاً عن هذه الترجمات فقد الف كتاب « مرآة الأيام » .

وهذه المجهودات الأدبية الجبارة هي شهادة بالغة على عقلية الرجل المركبة ، وحيويته الدفاقة وعلى ايمانه بالعمل الذي ترنم بمجده بعد سن الأربعين بسنتين في إحدى قصائده اللطيفة إذ قال :

يظل المرء في دنيا ه من شُغلٍ الى شغلِ
يُجِدُّ مُنى ويُخلِقُها على الأعوام كالحلل
ومن سنة الى سنة يعاودها بلا ملل
فن أملٍ الى يأسٍ ومن يأسٍ الى أمل
ولا سعدٌ ولا سلوى ولا مجدٌ سوى العمل (٣)

* * *

والحق أن الخليل مع تمثيله عصره أجلى تمثيل ، قد سما على دنياه ، وبزّ معاصريه من الأدباء في ثبات خلقه ، وكرم نفسه ، وتفانيه في خير الناس ، وكانت شخصيته مزاجاً فريداً من المثالية المحلقة في الخيال ، ومن الواقعية المؤمنة بالجهاد وحب العمل في الحياة ، فقد كان الرجل يسير بقدمين ثابتتين على الأرض ، ورأسه يطوف في السماء ، وقد عاش في سمائه شاعراً جريئاً مبتكراً ، وعاش على الأرض ، رجل دنيا ، كما يقولون ، يشاطر الناس أفراحهم وأتراحهم ويعطف على بائسيهم وفقرائهم ، وينقم من حكامهم الظالمين المتغطرسين ، وينادي بالشورى وحكم الدستور ، وهو لم يحمل على طبقة من الطبقات ، بل أحب كل طبقة ، واذا قرّع في شعره الشعب لاستكانته للظلم فهو تقريع المحب ، الوامق الى إسعاده ـ وأما مسالمته

---

(1) L'Éducation de la volonté.

(٢) الكتاب الذهبي ، لمهرجان خليل مطران بك ١٩٤٧ ص ٦٣

(٣) قصيدة « تحية عام ١٩١٣ » — ديوان الخليل الجزء الثاني ص ١٠١

ومصافاته لكبار الرجال وذوي الجاه، والأغنياء، فراجع الى حذره وحبه في كسب قلب كل طبقة .

وقد عبر شعره عن حياته وعن نفسيته تعبيراً صادقاً، فهو شاعر رومانتي يهيم بالحب هياماً، ويشغف بالجمال شغفاً كبيراً، وتبدع ريشته في مجالي الألم أيما إبداع، وقصيدته الوجدانية «مثال في مرآة»(١) مثال للرومانتيكية المبدعة، موضوعاً وأسلوباً لأنه أعرب فيها عن ألمه الحازب لموت حبيبته وبكائه عليها، وانه ليقول في طلاقة أسلوبية، وموسيقى مشجية :

كنا كغصنيْ دوحة نبتا   بل زهرتيْ غُصنٍ تعانقتا
بل حبتينْ بزهرة نمتا   وتساقتا لما تعاشقتا
نار الغرام مع الندى العذب
تمت سعادتُنا على قَدَر   فسطت عليها غيرة القدر
أودت معاً بالعين والأثر   واستبقت الباقي من الخبر
ذكرى وتبصرة لذي لب

ثم يقول : ماتت وكلٌّ ضاحكٌ جذل   ما للورى ولموت من جهلوا
لا قلب يبكيها ولا مُقلُ   بل نبلها واللطف والأملُ
وشبابها وطهارة القلب
ماتت ونور الفجر مرتسمٌ   في الماء فهو أغرُّ مبتسم
والروض زاهٍ بالندى شبم   والطير تصدح فيه والنسم
والزهر والأغصان في لعب

ومن أروع قصائده الرومانتيكية التي يصف فيها ألمه في مرضه قصيدة «الأثر الباقي»(٢) وهي في الحق من آثاره الخالدة، وقد جاء فيها قوله :

الله في صدر وهى   وتقوّست منه العظام
خاوٍ كجوف الغار تملأه   المخاوف والظلام

---

(١) ديوان الخليل — الجزء الاول ص ١٨٢

(٢) ديوان الخليل — الجزء الاول ص ١٨٨

إلاّ سراجاً حائلاً فيه يُنير بلا ابتسام
روح تضيء على ضريح في صميم القلب قام
تحنـو عليـه كأنه مهد لطفل فيه نام

ومثل هذه اللوعة نجدها في شعره الواقعي الرومانتيكي ، وبخاصة شعره الوطني ، وأبدع ما وقفنا عليه مثالاً لوجده وألمه ، تصويره أبناء بيروت الذين حصدهم الطليان بمدافعهم في عام ١٩١٢ في قصيدته «اهانة بيروت» (١) التي قال فيها :

بلادي لا يزال هواك مني كما كان الهوى قبل الفطام
أُقبل منك حيث رمى الأعادي رغاماً طاهراً دون الرَّغام
وأفدي كلَّ جُلمود فتيت وَهَى بقنابل القوم اللئام
فكيف الشبلُ مختبطاً صريعاً على الغبراء مهشوم العظام
وكيف الطفلُ لم يقتل لذنب وذاتَ الخدرِ لم تهتك لذام

ومع رومانتيكيته المجنحة والممتزجة بالواقع ، فلم يخل شعر الخليل من بذرات الواقعية ، ونلمس ذلك في شعره القصصي ، وشعره الاجتماعي وشعره الشعبي الذي كان يقرع فيه الشعب لاستنامته على أعمال الغاصب ، وعلى عسف الحاكم ، في أسلوب موضوعي ، وأجل ما وقفنا عليه في هذه الناحية مقطوعته « دمعة على الشام » (٢) في أيام الطاغية جمال ، وقد جرت في أسلوب واقعي ، تجرَّد من الذاتية ، وفيها يقول :

يرقى الذرى ويعيش مغتبطاً شعبٌ على أعدائه خشنُ
شعب يحب بلاده فإذا هانت فما لبقائه ثَمَنُ
تبكي العيون «الشام» راسفةً في القيد محدقة بها المحن
أتعزُّ أمصار بفتيتها وتهون تلك بهم وتمتهن
أشقى اليتامى في مرابعه شعبٌ يعيش وما له وطنُ

* *

هذه إلمامة عاجلة عن الرجل الحر الجريء الذي فقدته البلاد العربية ، الرجل ذي البديهة التي كانت تغلي كالمرجل ، والخاطر الذي ينهل كالمطر (٢) الرجل الذي حاولت أحداث الحياة ونوازلها أن تخمد من شعوره الوثاب ، وتطفىء من عزيمته الوقادة ، فبقيت مشاعره وعزيمته

---

(١) ديوان الخليل — الجزء الثاني ص ١٢١
(٢) من أقوال شاعر مصر — حافظ ابراهيم — كتاب السندوبي « الشعراء الثلاثة »

كالجمرات المتقدة وإن غطتها ذرات الرماد ، الرجل الذي عاش عاكفاً على محراب أبولو ، وسادناً من سدنة الشعر المبتكر الجديد ، فأوسع صدر العربيـة للخيال الخلاق ، وأفسح فيه للقصص والتصوير (١) وعلّم جيلاً من الأدباء معنى الشخصية الأدبية ، والطلاقة الفنية ووحدة القصيد ، فتأثرت به كوكبـة من الموهوبين أمثال خليل شيبوب ، والدكتور أحمد زكي أبو شادي ، والدكتور ناجي ، وإيليا أبو ماضي ، وإلياس فرحات ، وعمر أبو ريشة وغيرهم كثيرون ، تأثروا به تأثراً موضوعيًّا أو فنيًّا أو توجيهيًّا ، فتركت روحانية هذا المعلم — الجبار وقوته الفنية في نفوسهم أبعد الآثار، وما قام به هؤلاء الأفذاذ من تجديد، وما تناولوه من موضوعات ، إلاّ الرقي الطبيعي لرسالة الخليل (٢) وفي ذلك يقول الدكتور أبو شادي في آخر ديوانه « أنداء الفجر » :

« عرفت محبة هذا الرجل الإنساني وأستاذيته منذ ثلاثين سنة ، اذ تعهدني صغيراً بقيت أهتدي بهديه ، وأثره في شعري أثر عميق لأنه يرجع الى طفولتي الأدبية ، ويصاحبني في جميع أدوار حياتي ، وإذا كان استقلالي الأدبي متجلياً الآن في أعمالي ، فهو في الوقت ذاته ، يمثل الاطراد الطبيعي للتعاليم الفنية التي تشربتها نفسي الصبية من ذلك الأستاذ العظيم ، وما زالت تحرص عليها نفسي الكهلة الوفية ، ناظرة الى آثار الصبا والى معلمي الأول بحنان عميق . . . . » (٣) .

*

هذه لمحات من آثار الخليل في الأدب والأدباء ، وهذه بعض سماته العالية المتسامية ، وإنا لنشعر شعوراً خالصاً بالألم العميق ، لحرماننـا من شخصيته وإن كنا نجد شيئاً من العزاء الحق في تراثه الانساني والأدبي الباقي ، وفي تتويج رسالته التجديدية الجريئة قبيل موته ، وحسب الرجل رضواناً أن تبقى الشعلة الفنيـة التي أوقدها ، هادية وموحية إلى التجديد ، بل التجريب في النثر والشعر .

— أثاب الله مطران كفاء ما قدم من ثمار ، وفتح القـلوب لفنه النابغ ورسالته الخلقية النبيلة .

— وفي ذمة الفن ونور الخلد .

مصطفى عبد اللطيف السحرتي

---

(١) من أقوال شاعر مصر ، حافظ ابراهيم — عن كتاب السندوبي : « الشعراء الثلاثة ص ٢٥٤ »

(٢) مقال في آخر ديوان به أنداء الفجر — للدكتور أبو شادي بعنوان « مطران وأثره في شعري » من ص ١١ — ١٢٨ الطبعة الثانية — يوليو ١٩٣٤

(٣) ديوان أنداء الفجر — ص ١٢٨

[قصة]

هذا اخي

أقله القطار إلى القاهرة ، وكان قد عيّ بالنظر إلى ما ينشر تحت بصره من ألوان لا تماز ، فهذه أرض اخضرت بالنبت ، وتلك بقرات عجاف وسمان افترشت الغبراء تلعب أفواهها على اجترار ، وهؤلاء جماعات من الرجال والصبيان في أسمالٍ قد أووا الى ظلال الأشجار على مقربة من سوامهم يصيبون حظًّا من طعام وآخر من راحة .

فألقى برأسه الى متكأ لين ، يجده الراكب في الدرجة الأولى أو الثانية خلف ظهره ، وشخص ببصره الى سماء العربة ، ولم يكن الى جانبه أحد يشغله أو يشغل به ، ففزع الى أفكاره يأنس بها ، ومرت الذكريات تباعاً ، وقد وجم لها بادي الرأي واستوحش ، ثم بشّ وهشّ ، وهجس به هاجس من شر فانتزع رأسه من مقره ، وعاد يلهو بالنظر الى فضاء الله وما ضمّ .

والقطار موسع الخطو ، يسمى بما فوق ظهره في مساربه ومسالكه ليبلغ مبلغه فيريح ويراح ، يتلبث حيناً ببعض المدن يأخذ منها ويعطي . والفتى لاهٍ بهذا مشغول به . وكأن الوحدة في معزله أوحشت نفسه فنشد الأنس في تلك الجموع على أرصفة المحاط مصعدين منحدرين . وفيما هو منقلب الى مكانه بعد وقفة إلى النافذة رأى قبالته عذراء يكاد يجمعه وإياها العمر ، أما عنه فهو ابن العشرين والسبع ، وأما عنها فرد ذلك إليها ، وستعلمّ نبأه بعد حين .

ويدهشك أن يكون هذا جائل خاطره حين رآها لقد اطمأن الفتى للفتاة حين وجدها الى جانبه ، وشغفه مرآها ولما يستقر به المقام ، ولكن الفتاة بدت غير قيئة ، متشحة في غير وشاح الفتيات ، وخاف الفتى فاصلة السن أن تفرق ، فكان هذا أول ما شغل باله . فسكنت إليه نفسه حين بدا له من أمرها ما قدر ، وزاد من سكون نفسه أن رأى الأصابع عاطلة .

جلس الفتى ، وقد ملأ الله عليه فضاءين ، فضاء المكان وفضاء النفس وكان وسيماً على الرغم مما غبّر منه السفر ، حالياً بما يفقده الكثير من الفتيان . وكان الليل قد أظلّ الكون بجناحيه ، وأضاء لهما المصباح المركوز في عل تلك الأشبار التي اتسعت لهما من العربة .

ومرت دقائق صامتة إلاَّ من وجبات اضطرب بها قلب الفتى ، فحرّك لها قدميه يضرب بهما الأرض في رفق يستر ماوهم أنه مسموع مفضوح . وأحسَّت الفتاة ظاهره وكشفت عن باطنه، ولم تكن ذات قلب أغلف فتحركت للقول حين بصرت به غير شجاع ولا مقدام .

فسمرا في حديث طيب محمود ، عرف الفتى بعده أن الفتاة تمتهن التعليم في مدارس القاهرة ، وأنها قاصدة إليها بدء العام . وعرفت الفتاة أن الفتى مهندس عائد من السودان ، بعد أن شارك في عمل قضى من أجله هناك سنين ثلاث أو تزيد قليلاً . وافترقا حين بلغا القاهرة بعد أن عرف كل منهما أين يقيم الآخر .

*

شبت سعاد حين شبت على هوى لم تعرف كيف تدفعه ، ولم تملك لزمام أمرها مقاداً . وكانت ذات حظ من جمال وآخر من مال . ولكنها لم تملك الى هذين عقل الفتاة الركينة الرزكنة . فحسبت الهوى تسليماً ، والحب تفريطاً . فأعطت لفتى هواها وحبها ما أراد ، وعادت هي منه ملء البطن . واختفى المحب المغرر ، وكان من النازحين الى القاهرة للراحة واللهو ، وكما ضلت سعاد الجادّة ضلت عن أن تعرف عنه شيئاً ، غير أنه جار وأنه ذو يسار وأنه محبب إليها ، ثم هو كما أفضى إليها عند أول لقاء كان على أن يكون زوجاً بعد حين .

وخشيت الفتاة على نفسها العطب ، وهلعت الأم حين بصرت بالحزن يدب في جسم ابنتها ، والذبول يطوي نضرتها ، وخافت أن تفقد وحيدتها بين عشية وضحاها . فنسيت خطباً بخطب ورحلت بابنتها الى تركيا حيث مهد أبيها وجده . فقضت هناك عاماً وبعض عام وعادوا من هناك ثلاثة : الأم والفتاة وهذا الصغير الذي مدّ الله في أجله وأصبح بعد مهندساً ، وقد ودعناه منذ قليل على محط القاهرة في أوبته من السودان .

*

ونزح حسين من القاهرة وعاد إليها ، وانتهى إليه خبر الفتاة التي أحسنت إليه وأساء هو إليها فأهمه ، وجهد أن ينسى فلم يفلح . وقد همّ أن يخطو الى ذلك البيت خطوة شريفة لكنه أعجله البرق برسالةٍ داعية . فخفّ الى الصعيد . وهناك وجد عمّا يحتضر . وفتاة تتشوف إليها الجيوب قبل العيون ، لأنها خالفته على ماله ، ووجد العقد ينقصه أن يذيله باسمه ، ففعل .

وشغلت القرية الزوج فأخلد الى المقام فيها ولـكن ذلك لم يحل بينه وبين أن يلم بالقاهرة كلما ذكر حاجة له بها ، وهو حين يلم يذكر أن له فيها زوجاً وابناً لا يعرفان من أمره شيئاً .

*

لقن الفتى المهندس عن أمه أن أباه مات عنه وهو في بطنها ، فكان يحزنه ذلك ويهم نفسه ، ثم يعرف لأمه بعد جدته برهما به وحدبهما عليه فيحجب هذا حزنه على أبيه بعض الشيء .

هذا وذاك ما جال بخاطر الفتى وهو في أيبته من السودان . وقد عرفت الآن ما أهمه فأوحشه ، ثم ما راح له فهشّ وبشّ . ولـكن شيئاً لم يصلك نبؤه . هو ذلك الهاجس الذي نزع الفتى فقفز معه من مكانه الى النافذة .

عاد المهندس من السودان يحمل رجاء ورجاء . أما أولهما فذلك التوفيق الذي هيىء له ، فهو يرجو بعده فتحاً ونصراً ، وأما ثانيهما فتلك الفتاة التي لقيها في القطار فرجا أن تكون له زوجاً .

وقد خفّ الى حيث أمه ، وهو مزمع أن يفجأها ببشرى حضوره سالماً ، وأن يحدثها حديث توفيقه وما عزم .

ولم يكد يودع فتاته حتى استقلّ سيارة أخذت طريقها الى الجيزة حيث يقوم بيت ، هو كالقصر الصغير تحيط به حديقة جميلة تخذتها الأم ملهاها فشغلت بأمرها مع البستاني تشير عليه فيعمل . وعرف الناس المحيطون لها هذا الذوق فحمدوه لها وشكروها عليه . وزار الـكثيرون منهم الحديقة ينقلون عنها ويحكون صورها .

*

وصل الفتى الى البيت مع الصبح فأنكره ، رأى الحديقة غير الحديقة ورأى المتسلقات أعواداً يابسة والشجيرات قد امتدّت أغصانها في غير وجهة . فولج يدخل فرأى أرضاً سوداء لا تمسك غير تلك الشجيرات المشعثة .

هنا ذكر ذلك الهاجس فوجب له قلبه ، وضاق به صدره فخطا خطوات . فإذا خادم عجوز ما رأته حتى دمعت عيناها وما همّ أن يسألها حتى وجد الجدّة تشرف عليه من مخدعها وهي لا تقوى على القول . فاغروقت عيناه بالدمع وما يعلم ، وسُمع مع نشيجه نشيج ونشيج أفاق الفتى بعده وقد علم كل شيء ، علم ان الأم ودعت منذ أشهر أحوج ما تكون إليه ،

وان الجدة ضلت لُبتها فلم تملك أن ترسل اليه . وأن ذوي قرباه لم يروا أن يزعجوه بعد أن علموا أن أوبته قريبة .

*

ومضت أشهر والفتى في شغل عن الفتاة لا تعلم من أمره شيئاً فعدته كالفتيان لا يسلِّم حتى يودع ، فحاولت أن تنساه ولكنها لم تقو ، وكانت آلت على نفسها ألاّ تكون سبّاقة الى الاتصال به والسؤال عنه . وذلك شأن للنساء معهود غير أنها حين طالت غيبته خرجت عن معهودها وسعت اليه سائلة عنه .

وقد عنّ لها أن تلقاه حيث يعمل . فسعى الحاجب بين يديها الى غرفته يراها إحدى قريباته . وهناك الى مكتب انتثرت على صفحته أوراق وجدت فتاها مقبلاً على ورقة بين يديه يجري بين أسطرها قلمه غير متلبث . وفيما هو يرفع رأسه يملأ عينيه من جمال زهرة أودعها واعية زجاجية أمامه رأى فتاته وما كان أحس بها حين خطت اليه .

فنهض اليها ووصلت هي سعيها اليه فالتقيا غير بعيد من مقعده . ورمت ببصرها فرأته خطاباً ما كان يكتبه . فازدحم رأسها بالبلابل . وامتدت يدها غير مريدة الى الخطاب وأمكنت عينيها من أسطره . فاذا اسمها أول كلمة فيه ، واذا المكتوب لها ، فيه العذرُ وما كان كتب غيره .

وكما أسرعت الفتاة الى اختطاف المكتوب أسرعت الى رده . والتفتت الى الفتى فرأته واجماً حزيناً ، ورأت دموعه تسيل ، ثم سمعته يبكي فأسعدته ما وسعها أن تسعده . فأخذ الفتى بعد حين يحدثها حديثه في نبرات حزينة ، وما أن جره القول الى الحديقة حتى قام الى الزهرة فانتزعها من واعيتها وأكب عليها يلثمها في حرارة ، فبها فُتنت أمه ولها عاشت مُستنبتة .

*

وجرت الأيام تؤلف بين القلبين وتوفق بين الفؤادين وأنس كل واحد منهما بصاحبه أنساً لا تصفه ، وحملا في قلبيهما شيئاً أغلى من الهوى وأجل . فقد حرص على أن يخلو اليها ، كما حرصت هي على أن تخلو اليه يعمران هذه الخلوة بسمر محبب الى قلبيهما بريء . الفتى يريدها الى جنبه ، والفتاة تريده الى جنبها وما بهما ملل ولا سأم ، ولكنه مطعوم له حلاوته على كل حاسة والقلب باللقاء سعيد .

وسعت الفتاة مع الفتى الى قبر أمه مع الجُمع في الصباح يجلسان اليه ساعة من نهار ثم يعودان . كما سعت معه الى بيت جدته تعني معه ببعض شأنها . ولم يبق إلاّ أن يضم الفتى اليه فتاته في بيته ضمّاً رابطته الزواج .

وغاب « حسين » عن القاهرة غيبة طالت . وما نحب أن نذكرك به فما الحديث عنه ببعيد ، ثم ألمّ بالقاهرة زائراً . ويعنيني أن أسر اليك أنه وفد الى القاهرة هذه المرة لا لشأن من تلك الشئون التي تتصل بعمله . ولكنه رأى رؤيا أفزعته تتصل بماضيه مع الفتاة التي نكبها ، وأحسّ واخذاً من ألم يكاد يصمي قلبه ، وجد حادياً يحدوه الى القاهرة يجرى في إثره اليها . وما أن وطئتها قدماه حتى وجد باعثاً من شوق ينهض به الى تعرّف أمر فتاة أمسه . فنهض ولم يمض غير بعيد حتى عاد بعلم ما لم يكن يعلم ، ولكنه عِلْم أهمه وحزنه ، فقبع في البيت لا يخرج . وكان اليوم خميساً تتلوه جمعة .

فنهض مع الغد مبكراً ونهضت معه ابنته . وخرجت هي لشأن ظنه يتصل بعملها في القاهرة ، وخرج هو لشأن ظنته يتصل بأرضه وتجارته .

*

قد لا يجد الآثم المنيب غير رجام يقف اليها يذرف عندها دمعة هو واجد الراحة بعدها من ألم يرزح تحت عبئه . وما بك أن تحول بين باكٍ وبين ما يبكي عليه ولكن بك أن تعرف السبب إن جهلته .

وهذا ما أراده المهندس حين وجد مع الصباح الباكر رجلاً يجثو على قبر أمه يكاد يدفن في الأرض وجهه يبكي في صوت مسموع . وحسبه الفتى أخطأ فقيدَه . فتقدم إليه والفتاة في إثره ، ومسح بيده على كتفه وكأنه يريد أن يستنهضه . ورفع الرجل رأسه بعد لأي ، فرأى فتى وفتاة حجب الدمع على عينيه فلم يعرف منهما أحداً ، ولكنه ما كاد يرفع رأسه حتى سمعها صرخة من الفتاة باسمه ثاب معها الى بعض رشده ، فنهض واقفاً ، فاذا هو يستقبل ابنته مشدوهة حائرة . ويستقبل الى جانبها فتى أُوحي إليه أنه ليس إلاّ ابنه ، وكان مصدوقاً .

وعرف الأب أن الفتى والفتاة على هوى وحب ، فوجم ساعة مطرقاً ثم رفع رأسه بعينين اخضلتا بدمع وأراد أن يتحدث واقفاً فخذلته قدماه فجلس على القبر ومضى يقول ويبين ! .

ثم نهض راجعاً من حيث أتى تاركاً لهذين الأخوين ما يريان

وما يعلمنا أن واحداً من الثلاثة صحت له الحياة بعد هذه أو أنس بها

ابراهيم الابيارى

باب الأخبار العلمية

ماذا استفاد فن الطيران من الحرب العالمية الثانية ؟

قال الأستاذ « لو » العالم الانجليزي المشهور إن المباحث العتيدة في الذرّة سوف تقضي على فواجع الطيران ، والكوارث الجوية التي يروع بها العالم من حين الى آخر ، إذ تدل المباحث العلمية الحالية الدائرة بعيداً عن قائمة المحظورات السرية ، على نجاح مختلف في آفاق جمة سيؤدي الى زيادة الطمأنينة والثبات في فن الطيران وقت السلم . وذلك لأن في معاهد المباحث العلمية البريطانية كثيراً من الأجهزة الكهيربية الصالحة للطيران التجاري . وستكون السرعة من ضرورات نجاح الخطوط الجوية في المستقبل . لأن السائح العصري يصبو الى الانتقال عاجلاً من مكان الى آخر ويستشيط غيظاً من إضاعة وقته سدًى في الانتظار العقيم . ومن دأبه الجنوح الى المجازفة أكثر من ميله الى التلكؤ ريثما يصفو الجو . وقد أفضى استخدام الأجهزة الكهيربية الى حل كثير من المعضلات المتعلقة بسلامة الطيران . فقبل نشوب الحرب العالمية الثانية الماضية ، لم يكن لدى قادة الطائرات وسائط متقنة لتقدير أبعاد طائراتهم عن الاراضي التي يحلقون في أجوائها ، تقديراً صحيحاً ، ولا وسائل لمعرفة مواقعهم من الجو معرفة مضبوطة . أما الآن فقد اخترعت براعة العلماء البريطانيين وعبقريتهم ، مقاييس للارتفاع الجوي ، وبوصلات لاسلكية أوتوماتيكية ، فأجهزة لتقدير أبعاد الأهداف ، وغيرها من الأجهزة التي تبعث الطمأنينة في أفئدة الطيارين . تلك الطمأنينة التي تحققت على أيدي رجال السلاح الجوي البريطاني . ففي الطيران التجاري والخصوصي ، حيث تكون نفقات الادارة ، ذات شأن خطير حقيقة تتبين منافع مقاييس وقود الطائرات . وقد حلت الآلات الكهيربية المضبوطة محل المقاييس العتيقة غير المتقنة لذلك الغرض . فغدا الطيار يتمكن من تقدير ما يوجد في صهريج طائرته من البنزين ، في أي وقت كان في أثناء رحلته . ومن وسائل الطمأنينة الحديثة أيضاً ، الجهاز الكهيربي الذي يدل قائد الطائرة على مقدار الجليد الذي يتراكم على مروحة طائرته وأجنحتها ، إذ يبين له متوسط تكدس ذلك الجليد عليها فيتمكن الطيار حينئذٍ من تغيير اتجاه طائرته ، حينما يرى ذلك التغيير

واجباً ريثما تتحسن الأحوال الجوية . وتسنى أيضاً باستعمال كل من الجهاز الكهيربي الخاص بضبط عملية مزج الهواء ببخار البنزين في محرك الطائرة ، وبجهاز منع فرقعة البنزين ، السيطرة الاوتوماتيكية التامة على ما يستهلكه محرك الطائرة . وبذينك الجهازين يتاح تنظيم استنفاد الوقود . وحتى اذا تولدت الفرقعة في اسطوانة أو اسطوانتين أو أكثر ، زيد الوقود الممزوج بالهواء الزيادة التي تمنع فرقعته . ويقدر المطلعون على هذه الحقائق ، الوقود الذي يمكن توفيره بهذه الوسيلة الحديثة ، بأكثر من الطريقة القديمة بنحو العُشر . وهذا في عرفهم ، قدر يكفي لدفع ثمن الآلة المشار اليها . ثم إن البوصلة المغنطيسية القديمة قد بطل استعمالها ، إذ حلت محلها ، البوصلة الكهيربية الجديدة التي تعين اتجاه الطائرة وموقعها . وثمة جهاز لمنع تصادم الطائرات بعضها ببعض ، قوامه الصمامات الكهيربية ، سيكون له شأن عظيم في كل ناحية . وهو يركب على لوحة آلات الطائرة حيث يقوم دائماً ببيان مواقع الطائرات بنسبة بعضها لبعض ، وذلك في نصف قطر دائرة معينة .

طائرات مارك Marque

أما طائرات مارك التي تمت تجربتها من كل الوجوه ، فقد تبين نجاحها عمليًا غاية النجاح . وهي من مخترعات ڤوت وسيكورسكي(١) Sikorsky & Vought. وقد يصلح هذا الصنف نموذجاً لهليكوبتر المستقبل . وهذه الهليكوبتر تشبه الأوتوجيرو من بعض الوجوه ، ولكنها تختلف عن الأخيرة بخلوها من المروحة الأمامية ، إذ تحتوي على اسطوانة رحوية مستقيمة مثل طارة أو طارات التربين تدور في سطح مستو مؤلف من الفولاذ المجوّف يبلغ قطره ٣٦ قدماً . وهذه الاسطوانة ترفع الطائرة ، لخلوها من الأجنحة . ثم تدفعها الى الأمام أو الى الخلف أو الى أحد جنبيها ، وفق إرادة قائدها . وأحدث مزاياها وأغربها ، اسطوانتها المستقيمة الرحوية الصغيرة المركبة في ذنبها تركيباً عمودياً . وهي ثلاثية الريش . ويبلغ قطر كل ريشة منها سبع أقدام ونصف قدم ، تدفع الطائرة دفعاً جيداً في زوايا قائمة نحو الجبهة الأمامية للطيران .

وبهذا الجهاز تضبط القوة الرحوية للآلة . وبوساطته أيضاً تستطيع الطائرة

---

(١) هو ايجور سيكورسكي — مهندس متخصص في الطيران ، روسي — أمريكي ولد سنة ١٨٨٩

التحليق في الجو. أما كون هذا التحليق أمراً حقيقيًّا للغاية، وليس مجرد حركة أمامية بطيئة، فقد ثبت ثبوتاً مؤيداً بالبرهان، إذ رُفعت الطائرة فوق سطح الأرض مسافة بضع أقدام، قصد تغيير عجلاتها التي تنزل بها على الأرض. ثم أبيح لركابها الصعود اليها بسلم من الحبال، دُلِّي من فوق الى تحت، بينما كانت الطائرة محلقة في الجو على بعد أقدام قليلة من الأرض. أما الاسطوانة الرحوية التي في الأوتوجيرو فلا يديرها المحرِّك إلاَّ عند قيام الطائرة من الأرض. وما برحت طائرة الهليكوبتر ذات مظهر بدائي معين. ولكننا نتوقع اختفاء هذا المظهر، بتوالي نماذجها. ويرجح أيضاً زيادة سرعة طيرانها إذ أنها حالياً لا تزيد على مائة ميل في الساعة. لأن هناك عقبات أساسية تحول دون بلوغ مدى سرعتها، مثلها في الطائرات العادية. ومع ذلك لا يبعد أنها ستصل في السنوات القليلة القادمة الى ١٢٠ أو ١٥٠ ميلاً في الساعة من دون أي خفض كان لقوة ارتفاعها العمودي أو تحليقها الجوي.

ولقد كان هذا الصنف من ضمن النماذج الأولية للطائرات التي حاول الناس صنعها (كما أسلفنا القول في نبذة أخرى) غير أن تعاقب الفشل في تحقيق هذه الأمنية، جعل المخترعين يصدفون عن حل معضلتها. رغم المكافآت العظيمة التي كانت تعرض عليهم جزاء تقديم تصميم عملي لأجلها.

***

ومن بواعث الاغتباط أننا أصبحنا نرى صوراً لطائرات منها حاملة البريد، تحط على سقوف البيوت والمتاجر. ونشاهد تجاراً من صميم الريف يدخلون طائرة واقفة عند أبواب بيوتهم، فتقلهم الى متاجرهم.(١) فصرنا نعتقد أن هذه المناظر وأمثالها ليست من نسج خيال المستقبل بل هي حقائق راهنة من أطوار العصر الحديث،

الجراحة منذ ٤٦٠٠ سنة

عرضت حديثاً الجمعية التاريخية لمدينة نيويورك ومتحف بروكلين، على مجمع علماء الطب في نيويورك، نسخة منقولة عن رسالة طبية قديمة يرجع تاريخها الى ٢٦٥٠ سنة ق.م كتب أصلها جرّاح مصري قديم. وذلك على ورقة بردي. وتعرف هذه الرسالة باسم مكتشفها إدوين سميث. وقد وصفها المرحوم الدكتور جيمس هنري بريستد

---

(١) الكاتب — راجع مباحث العلم والعمران التي نشرتها في المقتطف سنة ١٩٢٩

العالم الأثري في الفنون والحضارة المصرية القديمة ، بأنها (أقدم نواة للخبرة العلمية الصحيحة في العالم) .

ولا غرو لأن هذه الرسالة كتبت في زمن قريب من عصر تشييد الأهرام . وفحواها يدل على حذق قدماء المصريين لعلم التشريح المؤسس على تشريح الجثث البشرية ، ويثبت أن مؤلفها كان ملماً بأن الدم يتدفق من القلب عن طريق العروق الى أجزاء الجسم كافة : وقد وردت في هذا النص كلمة « المخ » لأول مرة في الكتابة .

***

ورسالة البردي هذه مقسمة ثلاثة أقسام خص الجزء الأول منها بالطب الظاهري والجراحة . وعنوان الجزء الثاني « رقيات[1] لطرد ريح عام الآفات المرضية » والجزء الثالث خاص برقي « تحويل الشيخ شاباً في العشرين من عمره » .

عوض جندي

---

[1] الرقية — أن يستعان للحصول على أمر بقوى تفوق القوى الطبيعية في زعمهم أو وهمهم وجمعها رقى ، ورقيات .

ابراهيم المازني

قضى الكاتب الكبير الاستاذ ابراهيم عبد القادر المازني نحبه في مساء ١٠ أغسطس ١٩٤٩ بين الألم والحسرة لفقدان مصر حاملاً من حملة لواء الأدب الرفيع وخسارتنا في موته خسارة أدبية كبيرة ، ولا يخفف منها إلا ما ترك الرجل من تراث أدبي باقٍ فان بحوثه في « حصاد الهشيم » وروايته « ابراهيم الكاتب » وترجماته الدقيقة البارعة ، سوف تبقى شاهداً مبصراً على نبوغه وفوقانه ، وعلى طواعية اللغة لقلمه الذكي اللماح .

ويعد الأستاذ المازني مثالاً للأديب المجاهد في العصر الحديث ، فقد مهن التدريس في بداية حياته بعد تخرجه من مدرسة المعلمين العليا واشتغل بالصحافة طوال حياته ، وتقلب بين مختلف الصحف وصدر فيها جميعاً عن عفة واتزان ، والحقل الذي تحلى فيه نبوغه هو الحقل الأدبي ، وفيه أنبت أجمل الثمار وأشهاها ، ولقد امتاز المازني ، بأسلوب فكاهي منقطع النظير بين كتاب العربية .

رحمه الله ، وأثابه كفاء جهوده الأدبية الباقية .

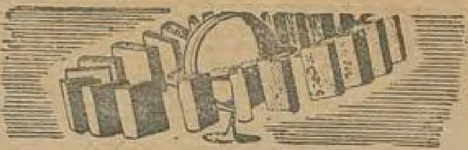

مكتبة المقتطف

البرقيات للرسالة والمقالة

للمرحوم العلامة احمد تيمور باشا — لجنة نشر المؤلفات التيمورية بمصر

أصدرت لجنة نشر المؤلفات التيمورية أخيراً كتاباً جديداً من مؤلفات العلامة الكبير احمد تيمور باشا رحمه الله، عنوانه «البرقيات للرسالة والمقالة» وهو نوع جديد في التأليف في هذا الموضوع — وقد قدَّم له سعادة الشيخ الجليل خليل ثابت بك رئيس لجنة النشر بمقدمة هذا نصها — قال حفظه الله: —

خلَّف المغفور له العلاَّمة احمد تيمور باشا من كنوز العلم والأدب والتاريخ وسائر الفنون ما يشهد له بسعة الباع وغزارة الاطلاع، واتحف الناس جميعاً متأدبين ومتعلمين باحثين ومطالعين بمكتبة فيها مجموعات من أنفس ما جمع الجامعون البارعون، منها ما تمَّ طبعه ونفع نشره سواء في حياته أو بعد ما قبض الى ربه بوساطة «لجنة نشر المؤلفات التيمورية» وهي التي أتشرَّف برئاستها.

ولقيت اللجنة من اقبال أهل العلم وأنصار الأدب ما دفعها دفعاً الى مواصلة هذه الخدمة الأدبية التي اضطلعت بها في سبيل نشر الثقافة العامة في مصر وغير مصر.

ومنها ما لم يرَ النور بعد وهو ما تداركته هذه اللجنة وأحاطته بعنايتها ونشرت بعضه تباعاً في فترات بعضها قريب وبعضها الآخر بعيد، مقيدة في ذلك بعملها الشاق الكبير وبحثها العميق ومراجعتها الدقيقة. ولا غرض لها من ذلك كله إلاَّ أن تقفو أثر الفقيد الذي لم يتعلَّم العلم ليحبسه في صدره أو ليقفه على نفسه، بل كان علمه وسيلة لإرشاد الناس كما كانت خزانته أداة لإنارة العقول وهداية الباحثين.

وقد اجتمع لدى اللجنة الى اليوم من كتبه التي وقفت على طبعها واخراجها للناس خمسة كتب من أمتع الآثار وأروعها وأنفعها في مقدمة ما خلفه الفقيد من كنوز قلبه ولسانه وفكره وبيانه.

وهذه الكتب الخمسة هي: «ضبط الأعلام» و «لعب العرب» و «تاريخ الأسرة التيمورية» و «الأمثال العامية» و «الكنايات العامية».

وتتبع هذا القدر من الكتب بكتابها الجديد: «البرقيات للرسالة والمقالة» وهو عنوان غريب لموضوع غريب يضطلع به وحده، بل هو الموضوع الذي تتألف اليوم له ولسواه من البحوث العلمية لجان أدبية ومجامع علمية أهلية وحكومية.

ونظرة واحدة الى هذا الكتاب وما سبقه من كتب للفقيد كافية للاقتناع، بأن الموضوعات التي طرقها في حياته لم تكن من النوع المعتاد، بل كانت فترة ندرة كمخطوطاته التي تقتضي جهداً وصبراً لا يقدر عليهما سوى الذين وقفوا أنفسهم وجهودهم على خدمة العلم والأدب.

ومن أجل ذلك قدّرت اللجنة هذه المؤلفات قدرها وأحاطتها بما تستحق من عنايتها وبذلت ما قدرت عليه لتحقق غايتها وتتم رسالتها.

وعسى كتاب «البرقيات للرسالة والمقالة» هذا ان يلقى ما لقيته كتب المؤلف الفقيد والعالم الباحث العظيم التي كتبها بأسلوب علمي جزل دقيق وامتازت بالقوة والسهولة والشعور العميق.

١ — الوزراء العباسيون

أليف الاستاذ محمد احمد برانق — صفحاته ٢٥٦ من القطع المتوسط — مطبوعات لجنة البيان العربي بمصر

تناقل المتقدمون قبل عصر التدوين، السير والأخبار بالرواية جيلاً بعد جيل، حتى إذا اهتموا بتدوين العلوم والفنون، كان التاريخ من العلوم التي دوّنوها، وكان العرب يجرون في تدوينه على نمط خاص، ينحصر في ذكر الأحداث منسوبة الى رواتها، أو غير منسوبة.

وقد ألف كثير من المتقدمين في الوزراء الاسلاميين، والمؤلفون وإن اختلفت طريقتهم، كانت لا تخرج عن سرد الأخبار، مجرّدة من البحث والتحليل والنقد والتعليق.

والكتاب الذي بين أيدينا «الوزراء العباسيون» لمؤلفه الأستاذ الفاضل الأستاذ مد احمد برانق يختلف عن هذا الوضع، فقد أراد الأستاذ برانق أن يكشف لنا عن لأحداث التي جرت بين الوزراء من جانب، وبين الملوك من جانب آخر، وان يبحث هذه لأحداث ويحللها ويحكم لصاحبها أو عليه، غير مبالٍ شيئاً غير الحق الذي يهديه إليه بحث، وإن كان في إظهار هذا الحق سخط ساخط من المتزمتين الذين درجوا على تمجيد قدماء وإحاطتهم بهالة من القدسية أو شبهها، فان البحث العلمي الصريح الصحيح لا يعرف

الجاملة وبدأ بالدولة العباسية أول دولة عرفت الوزراء، فتكلم عن حاجة الملوك الى الوزراء ومتى سُمي الكاتب وزيراً وعن نوع الحكم في الدول الاسلامية وأقسام الوزارة عندالعرب

والكتاب بجملته يحوي بحوثاً قيمة عن رأي مؤرخي الأفرنج في تاريخ العرب والكتاب في العصور المختلفة أمثال شلوسر ونيبور ورانكه وفنكلر ورينان — ورميهم الشرقيين بالجمود، وقصورهم وتقصيرهم وتعصبهم.

ومشاهير الكتَّاب التي وردت في الكتاب هم: الخلاَّل «وزير آل محمد» — وخالد ابن برمك — أبو أيوب المورياني — الربيع بن يونس — أبو عبيد الله معاوية بن عبيد — يعقوب بن داود — الفيض بن أبي صالح — ابراهيم بن ذكوان الحرَّاني.

فنهنيء الأستاذ محمد احمد برانق بكتابه النفيس الذي سدّ فراغاً كبيراً في المكتبة العربية من هذه الناحية ونسأل له اطراد التوفيق في اخراج الأجزاء الباقية من الوزراء الإسلاميين بهذا النحو من الدرس العميق على اختلاف دولهم وعصورهم — ونرجو لكتابه الرواج الذي يستحقه.

٢ — بجوار الكعبة المشرفة

كيف حج النبي (صلعم) وبحوث أخرى

[تأليف الاستاذ محي الدين رضا — صفحاته ١١٨ من القطع الكبير]

اسم الكتاب يدل عليه ويشرح محتوياته فهو يشتمل على وصف رحلات قام بها المؤلف الى الحجاز ويسرد الوصف بكيفية أداء مناسك الحج والأدعية التي تتلى في كل مكان، وفي الكتاب وصف لعظماء الحجاز وشيء مما امتازوا به أمثال جلالة الملك عبد العزيز آل سعود وسمو ولي عهده وغيرها.

ويحدثنا المؤلف في كتابه حديثاً تصويريًّا شائقاً عن الطواف حول الكعبة المشرفة فيصف الطائفين والطائفات وصفاً شهيًّا مزجه بالنقد في بعض الأحيان والإرشاد الى ما فيه اتقان أداء مناسك الحج. وقد مهّد لذلك بسرد كيف حجّ النبي (صلعم) وحقق أن دخول النبي الى المدينة يوم هاجر إليها لم يكن من باب ثنيات الوداع كما هو المشهور الذي تلقنه المدارس لتلاميذها الى اليوم، وان النبي دخل المدينة من باب ثنيات الوداع بعد استقراره في المدينة وكان عائداً من غزوة وكان قد شاع أنه قتل فيها.

ووصف المؤلف بعض مجالس الملك عبد العزيز آل سعود وسرد بعض أحاديث جلالته ووصف مقدار حبه لجلالة أخيه الملك فاروق المعظم وحبه لمصر كلها

وفي الكتاب أحاديث في الاصلاح لمعالي وزير المالية السعودية الشيخ عبد الله السليمان وغيره وفيه صور لأماكن الحج وعظماء الحجاز ، وهو تحفة تستحق عناية الحجاج ومحبي كتب الرحلات والأدب .

٣ – من كل نبع قطرة وقصص أخرى

تأليف حسن محمد جوهر — صفحاته ٨٤ صفحة من القطع الصغير — مطبوعات لجنة البيان العربي بمصر

هذا الكتاب مزيج جمعت قطراته من نبوع كثيرة ، وهو يحوي مجموعة من القصص تمثل كثيراً من عادات وأحوال الأمم المختلفة ، قديمها وحديثها — ففيها الأشوري والعربي والهندي والألماني — ومن أهمها قصة آدابا الصيَّاد وهي أشورية مثلت بعض فصولها على شاطىء نهر دجلة ، تبين أن الأشوريين كانوا يعتقدون أن لكل ظاهرة طبيعية كياناً خاصاً تتمثل بشراً أو حيواناً أو خليطاً من اثنين منهما أو أكثر. ولقد ظهرت ريح الجنوب للفتى آدابا الصيَّاد في صورة عجوز شمطاء بها جناحان كأجنحة الطير .

والقصة تكشف بأجلى بيان عن حب الأشوريين لآبائهم حبًّا يضحى في سبيله الخلود. وآية ذلك أن آلههم الأعظم أنو Anu ، قد خيَّر الفتى آدابا بين أن يرفعه الى أرفع مكان وان يطهِّره من الأرجاس وان يسقيه من شراب الآلهة ليكون من الخالدين — أو ان يرده الى أبيه ، فاختار الفتى بدون تردُّد أن يرد الى أبيه لحاجته الى معونته ورفده .

وعندئذٍ طابت نفس «أنو» بجواب الفتى ورأى فيه آية الاخلاص ونبل الأخلاق وايثاره أباه على نفسه وأمر أن يغمر في بحر الصحة ليطهر من امراض الدنيا وآلامها ، وان يعيش سعيداً في الدنيا مع أبيه الشيخ .

أما قصته الثانية «موجلي» فهندية قصد مؤلفها أن يبين أن الحيوان والطير أمم مثلنا لها نظمها الخاصة وقوانينها المرعية ، وان منها العزيز الجانب ومنها الذليل ، ومنها الكريم ومنها اللئيم .

ولقد عاش موجلي وهو بطل القصة بين الحيوان فعلمته لغتها ، ولقنته قوانينها ، ووقفته على أسرار الغابة ، وحين رجع الى أهله ، عاد موفور الصحة ، مفتول العضل ، قويًّا ، وهو أقدر على خوض غمار الحياة وأقوى على مغالبة الأحداث من لداته الذين لم يحيوا حياته .

وقصص الكتاب كلها على هذا النمط الطيب مما تلذ مطالعته ، وهو لبنة طيبة أضافها المؤلف الى مكتبة الطفل الحديث ، ويد يشكر عليها .

اسبيرو جبري

فهرس الجزء الثالث

من المجلد الخامس عشر بعد المائة

١٥٣ يوستنيانوس والأمبراطورية البوزنطية : اسماعيل مظهر
١٦٢ يا عذارى الليل (قصيدة) : يوسف جبرا
١٦٣ مستقبل الشعر العربي : محمود أمين العالم
١٦٩ حذار من البنسلين : فوزي الشتوي
١٧٧ العناية بصحة العامل : الدكتور حسن كمال بك
١٨٥ السيد محمد رشيد رضا والأستاذ عباس محمود العقاد : عبد الله أمين
١٩٤ الضبع وابن آوى : ترجمة الدكتور مراد كامل
١٩٥ خليل مطران الرجل الشاعر : مصطفى عبد اللطيف السحرتي
٢١٣ هذا أخي (قصة) : ابراهيم الابياري

٢١٨ أخبار علمية * ماذا استفاد فن الطيران من الحرب العالمية الثانية . طائرات مارك . الجراحة سنة ٣٦٠٠ قبل الميلاد : عوض جندي — ابراهيم عبد القادر المازني
٢٢٢ مكتبة المقتطف * البرقيات للرسالة والمقالة : (١) الوزراء العباسيون (٢) بجوار الكعبة المشرفة . (٣) من كل نبع قطرة وقصص أخرى : اسبيرو جسري

لحق المقتطف

١١٣—١٩٢ تاريخ الأدب السرياني من نشأته الى الفتح الاسلامي : بقلم الدكتور مراد كامل والدكتور محمد حمدي البكري